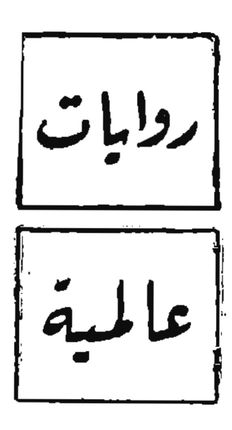
روايات





امرأتان

TWO WOMEN



العدد رقم ٢٨٩

امرأتان

للكاتب الإيطالى العالمى

ألبرتو مورافيا

ترجمة

حسين القبانى

الفصل الأول

من الريف الى المدينة

اعطيت زوجي كل شيء كالمادة المتبعة في ريف ايطاليا .. أو على وجه التحديد كالتقاليد المعروفة في منطقة كيوشيارى .. أعطيته القلائد والصندل وكل شيء ، لأنه زوجي ولأنه سيحملني معه الى روما . وكنت سعيدة لأني راحلة الى روما ، ولم اكن أعرف أن شقاء الحياة كان في انتظارى هناك .

كان لى ، فى ميعة الصبا ، وجه مستدير ، وعينان واسعتان زاخرتان بالحيوية ونبض الشباب وشعر اسود غزير مضفر ، وشفتان حمراوان فى لون العقيق وعندما أضحك ، كنت أكشف عن أسنان بيضاء منظمة كحبات اللؤلؤ . وكنت عدا هذا كله قوية البنية ، رشيقة القوام موفورة النشاط . وبرغم أن والدى كانا من الفلاحين ، الا أنهما جهزانى كأية سيدة محترمة ، اذ أعطيانى من كل شيء ثلاثين : ثلاثين غطاء للفراش ، وثلاثين كيسا للوسائد ، وثلاثين منديلا ، وثلاثين قميصا ، وثلاثين رداء « وفستانا » وكانت كلها من الأقمشة الناعمة المنسوجة على المناسج اليدوية وموشاة بابر التطريز على مختلف الرسوم الجميلة .

وقد كان معى ايضا قلادة من العقيق الأحمر القاني ــ وهواغلى انواع العقيق ــ ، وقرط مموه بالذهب ، وخاتم ذهبى له فص من العقيق . وسوار . سوار جميل من العقيق والذهب . وبجانب هذا كله كان لدى بعض الحلى الذهبية التى توارثتهــا الأسرة ، وقلادة ذهبية توضع حول العنق وتتدلى على الصدر .

وكان زوجي يمتلك متجرا صغيرا للبقالة فى حى تراستيفير بمنطقة فيكولوديل سينك . وكان قد شيد فوق المتجر مسكنا صغيرا مكونا من ثلاث غرفات « وصالة » ونوافذه الأمامية تطل

على الشارع ، بحيث كنت أكاد ألمس اللافتة الموضوعة على أعلى واجهة المتجر حين أطل من احدى هذه النوافذ .

وكان هذا المسكن الصغير جنتي الموعودة . كان مفروشا بالأثاث الأنيق .. وكنت أقضي ساعات الصباح في ترتيبه وتنظيفه وصقله حتى يبدو كل شيء فيه كأديم المرآة . وكنت أجد فى هذا كله متعة بالغة . فاذا فرغت من عملي هذا ، حملت حقيبة السوق، وخرجت لشراء ما يلزمنا من حاجات الطعام .. وكان معظمها فى متجر زوجى ، ومن ثم كنت أمضى الى السوق لاستمتع بمشاهدة الأشياء ، ولأشترى الحاجات القليلة اللازمة ، كالخضر والفاكهة واللحم أو السمك .. وكنت اجول متمهلة امام المتاجر أساوم واشترى او أساوم وأرفض الشراء .

وقد اعتدت العودة الى مسكنى وانا أشعر بالبهجة والسرور والرضا على نفسى ثم أبدا فى طهو الطعام وتجهيزه لوجبتى الغداء والعشاء ، ثم أهبط الى متجر زوجى حيث أمضى فترة سعيدة فى معاونته على البيع .. والواقع انى كنت اشعر وانا وراء منصة البيع كأنى ملكة تتعامل مع رعاياها .. والعجيب انى كنت أبرع من زوجى فى هذه العملية .. كنت أتناول السلع وازنها والفها واحسب ثمنها بسرعة مذهلة ، على حين كان زوجى بطيئا فى عمله .

وبمناسبة الحديث عن زوجى اقول انه كان رجلا أكبر منى بنحو ثلاثين عاما .. عجوزا ، بدينا قال الناس عنى انى تزوجته من اجل ماله . والواقع انى لم أحب زوجى هذا يوما ، ولكننى اقسم أمام الله أنى ظللت وفية له طوال حياتى الزوجية معه، على حين كان هو ، على العكس، وكنت أغض الطرف عن اعماله غير المرضية لأن سعادتى كانت محصورة فى مسكنى الجميل ، وفى نظرتى المتفائلة الى الحياة . وبمعنى آخر كان كل ما أرجوه من زوجى أن يدعنى وشأنى .

ومع مرور السنوات ، أصبح زوجى عاجزا عن مواجهة أعباء الحياة ، وتغير طبعه ، وتوترت أعصابه ، وساءت معاملته لى وبدت

غلظته وخشونته واسرف في ايذائي واهانتي ، وكنت اتحمل هذا كله في صبر جميل ، من اجل ابنتي الطفلة روزينا .

على ان هذا كله لم يدم طويلا ، اذ ما لبث هذا الزوج البغيض ان مرض مرضا شديدا . وان الجميع من جيراني ليشهدون كيف اهملت كل شيء في سبيل تمريضه والعناية به .. ولكنه في النهاية مات . واعترف انى شعرت بالسعادة بعد موته . اذ اصبحت المالكة الوحيدة - مع ابنتي الطفلة - للمتجر .. وللمسكن .. وللمـــال القليل الذى تركه لنا .

ولم اكن في الواقع اريد من الحياة أكثر من هذا .

كانت تلك اسعد سنوات حياتي .. سنوات ١٩٤٠ و ١٩٤١ و ١٩٤٢ ، ١٩٤٣ . وكانت الحرب العالمية الثانية ، كما نعرف جميعا ، مشبوبة الأوار . ولـكنها لم تكن تعنيني في شيء . ليذبح هؤلاء المتحاربون بعضهم بعضا ما دامت هذه رغبتهم .. ليقض بعضــهم على بعض بالطائرات والدبابات والمدافع والقنابل . وما دام متجرى سليما ، ومسكني قائما ، واعمالى التجارية مزدهرة ، فماذا يهمنى مما يجرى في العالم ؟ انني لم أكن احسن القــراءة برغم اجادتى للعمليات الحسابية البسيطة التى أحتاج اليها في عملى .. وكنت اعتمد على ابنتي روزينا ، بعد أن شبت عن الطوق، في قراءة أخبار الحرب . وكان الألمان والانجليز والأمريكان والروس في نظـرى سواء واذا جاء الجنود الى متجرى وقالوا اننا سنكسب الحرب ، أو سنذهب هنا او هناك ، او سنفعل هذا أو ذاك ، كنت اقول لهم ان في مقدورهم أن يفعلوا كل شيء ما دام متجرى يبقى سليما ، ومسكنى يظل قائما ، وتجارتى تستمر مزدهرة ، وحياتى مع ابنتى لا يعكر صفوها شيء .

وكانت تجارتى تزداد ازدهارا برغم قيود التموين ومشـــاكله وشوائكه .

وكان السبب في ازدهار تجارتي يرجع في الواقع الى براعتى في الاتجار بالمواد الخارجة عن « التسعيرة » .. كنت اذهب مع

ابنتي روزينا الى قريتي في اعماق الريف الجبلي ونعود بعد بضعة ايام محملين بالمؤن والمأكولات المختلفة التي كان سكان المدن يتهافتون على شرائها بأية أسعار .

الا أنني لسوء حظي كنت جذابة أكثر مما ينبغي .. وكان ترملي وانا في ذروة الشباب والنضج من الأسباب التي ضاعفت من تهافت الرجال على طلب يدي .. ولكنني ، بعد تجربتي المريرة في الزواج ، كنت قد وطدت النفس على البقاء بلا زواج مدى الحياة ، وحسبي ابنتي ارعاها واتعهدها واعمل على اختيار الزوج الصالح لها ..

وما زادني نفورا من الزواج أني كنت ارى في عيون المتقدمين الى نظرات الجشع والطمع في متجري ومسكني .. وكان معظمهم من الصعاليك والمتعطلين والكسالى الذين يحبون أن يعيشوا ـ كالطفيليات ـ على مجهود غيرهم . وأذكر أن واحدا من القلائل الجادين ، كان شرطيا من نابلي ، وحاول ان يجتذبني اليه بالرقة والاسراف في مجاملتي ؟ ولما فاتحني في الزواج قلت له بصراحة :

ـ اسمع .. اذا لم يكن لدى المتجر والمسكن ، فهل كنت تقبل الزواج مني ؟ .

كان صريحا ، اذ ضحك وقال :

ـ ولماذا نفترض شيئا لا وجود له .. ان لديك المتجر والمسكن فعلا .

كان هذا كله يجري والحرب مستعرة الأوار . ولكنني لم أهتم بها كعادتي . اذ كنت في المساء استمع الى الموسيقى الخفيفة المذاعة من الراديو ، فاذا جاءت نشرة الأخبار ، طلبت من روزينا ان تغير المحطة .. ولماذا اسمع انباء الذين يقتل بعضهم بعضا ؟ نعم لماذا؟ لقد أشعلوا نار الحرب دون اذن منا ، نحن الفقراء المسالمين .. ولو انهم استأذنونا حقا ، ما قبلنا أن تحدث هذه المجازر التي لا معنى لها ولا هدف .. وماداموا هم أشعلوها بأيديهم ، فلا اقل من ان نهمل نحن امرهم ، ولا نهتم بشأنهم .

على أن لا بد لي من الاعتراف بأن الحرب كانت سببا في ازدهار تجارتي وازدياد المال لدي الى حد لم أكن أحلم به يوما .. ولما ازدادت الاغارات الجوية على نابلي وغيرها من مدن الساحل ، كان الناس يأتون الي ديفولون ويقولون :

ـ هلم نرحل عن روما قبل أن يأتي دورها في هذه الاغارات . ولكنني كنت أقول لهم في اطمئنان :

ـ لا .. ان روما لن تتعرض للدمار لأن فيها البابا .. ثم كيف ارحل عن روما وفيها متجري ومسكني ؟ .

وكان والداي أيضا قد كتبا يدعوانني للاقامة معهما حتى تنتهي الحرب . ولكنني رفضت الا انني كنت مع روزينا نواصل الذهاب الى الريف لنعود محملين بمختلف انواع المؤن والمأكولات من دقيق وسمن وبيض وما الى هذا لنبيعه بأسعار خيالية للأهالي الذين كانوا يتسابقون على تخزين المؤن بأي ثمن . وكانت روزينا تتبعني أينما أمضي دون أن تتذمر ، والواقع انها ، منذ طفولتها كانت كالملاك أخلاقا وسلوكا ..

وقد اعتدت ان اقول لها بين الحين والآخر :

ـ ابتهلي الى الله معي ان تستمر الحرب عامين او ثلاثة اخرى حتى استطيع ان اجمع ثروة تجعلك من الأغنياء ، وتتيح لك فرصة الزواج من الشاب المناسب .

وكانت في هذه الحالة لا ترد الا بزفرة حارة .. وأخيرا علمت انها كانت تحب شابا ايطاليا من بونتكورثوم يمتلك أبواه مزرعة ، وكان يدرس في معهد تجاري ليتخرج محاسبا .. ولكنه قطع دراسته ، والتحق بالجيش وأرسل الى ميدان القتال في يوغوسلافيا . وقد ظلت روزينا تراسله وهي تخشى في كل يوم أن تصدم بنبأ مصرعه . ولما صارحتني روزينا بهذا كله قلت لها :

ـ يجب اولا أن يعود من هذه الحرب سالما .. وبعد ذلك دعي كل شيء لي ..

ولفت ابنتي ذراعيها حول عنقي ؟ من فرط السعادة ، وقالت والدموع في عينيها :

ـ اذن ابتهلي معي ان تنتهي الحرب قبل أن يصاب بسوء ..

ـ اطمئني يا حبيبتي .. ان ملاكا مثلك لا يمكن أن تقترب مساوى الحروب ومآسيها من قدميه ..

والواقع اني كنت مطمئنة كل الاطمئنان الى المستقبل .. كان لدى المتجر ، وكان لدى المال الوافر .. وكان لا بد أن تنتهي الحرب يوما .. وبعد هذا لا يبقى أمامنا الا ان نسعد بالحياة .. أناوابنتي وحبيبها ..

وبدأت تطلعني على رسائله اليها .. واذكر اني قرأت ذات مرة عبارة وردت في احدى رسائله :

« اننا نخوض معارك طاحنة هنا ، فان هؤلاء اليوغسلاف يرفضون التسليم ، ولهذا فنحن نعيش دائما في حالة دفاع وترقب .. »

ولم أكن أعرف شيئا عن يوغوسلافيا وأهلها ، ولكنني لم امتلك نفسي من القول لابنتي :

ـ ماذا يفعل جنودنا في هذه البلاد ، اما كان الأفضل ان يبقوا هنا في بلادهم ؟. ان اليوغسلافيين يرفضون التسليم .. وهذا حقهم .. نعم هذا حقهم بلا جدال .

واستمرت الأحوال على هذا النحو شهورا طوالا حتى جاء شهر سبتمبر .. وكانت متاجر روما قد أصبحت خاوية تماما بعد ان تسابق الأهالي في تجريدها من كل شيء وبأي ثمن .. وبدأ الفقراء يتجمعون أمام مخازن ومعسكرات الحكومة مطالبين بالطعام .. وتنبهت ذات يوم ، فاذا متجري قد خلا من كل شيء تقريبا .. الا من بضعة اكياس من الدقيق وكمية من الصابون وبعض السجق والبسطرمة .. وهكذا ادركت ان اموالي التي جمعتها لن تحول بيني وبين الموت جوعا ـ أنا وابنتي ـ اذا واصلنا البقاء في هذه المدينة المسحورة . ذلك ان كل الناس ، كانوا يبحثون عن اي طعام ،

ويبذلون فى سبيله كل ما لديهم من مال قليل أو كثير . وكانت رحلاتى مع روزينا الى الريف قد توقفت بعد أن ازدادت مراكز التفتيش والمراقبة وبعد أن ضوعفت العقوبة على التجارة فى السوق السوداء . ومن ثم قلت لروزينا ذات يوم :

ـ اذا واصلنا البقاء هنا يا ابنتي ، فسوف ينتهى أمرنا الى الموت جوعا .

وانهمرت الدموع من عينيها وقالت :

ـ لشد ما أنا خائفة يا أماه ..

وشعرت بالحزن العميق .. ذلك أن روزينا لم تحاول حتى هذه اللحظة أن تتذمر أو تشكو أو توحي الى بأنها مستاءة من شيء ، بل لقد كانت بسلوكها السليم وهدوئها العجيب تملؤنى بالمزيد من الشجاعة فى مواجهة الخطوب . ومن ثم قلت لها وأنا أحاول تهدئة مخاوفها :

ـ ما الذى يخيفك يا بلهاء ؟ اننا فى أمان تام .

فقالت والخوف يزداد عمقا فى نبرات صوتها :

ـ ان الناس يقولون فى كل مكان ان الحلفاء سوف يرسلون طائراتهم ليقتلونا جميعا .. يقولون انهم سيدمرون كل شيء أولا .. سيدمرون السكك الحديدية والجسور والقناطر ، حتى اذا لم يعد الأهالى قادرين على تركها ، سيأتون بطائراتهم ويقتلوننا جميعا . أوه .. لشد ما أنا خائفة يا أماه .. وجينو .. خطيبى .. لم يرسل الى منذ مدة طويلة ، منذ شهر تقريبا .. ولست أدرى ماذا جرى له .

وحاولت أن أهدىء من مخاوفها قائلة ان البابا فى روما ، وان أحدا من الحلفاء أو غيرهم لا يجرؤ على القاء قنبلة واحدة عليها ، وان الألمان سوف يكسبون الحرب فى النهاية ، ولكننى كنت فى الواقع اشد خوفا منها ولا سيما بعد أن علمت بقرار ذلك الطاغية موسولينى ومحاولة ايطاليا الخروج من الحرب .. الا أنها لم تقتنع وظلت تبكى بحرارة .. ونظرت اليها .. الى وجهها الصبيانى

الجميل.. والى براءتها .. والى صباها .. وقلت لنفسي « ما ذنب هذه المسكينة لتحمل مساوى غيرها ؟ »

وعدت أخفف عنها قائلة :

ـ لسوف يهبط الحلفاء قريبا على شواطىء ايطاليا ليطردوا الألمان منها ، ولاشك انهم سيحملون معهم كميات هائلة من المؤن والمأكولات والملابس .. اطمئنى .. ان نهاية الحرب بالنسبة لنا لم تعد الا مسألة ايام معدودة .

وبعد برهة اخرى قلت لها لأزيد اطمئنانها :

ـ ولكن .. هل تعرفين ماذا سنفعل حتى يهبط الحلفاء على شواطئنا ؟. لسوف نذهب الى جديك فى الريف حيث نعيش كالمترفين .. نأكل ونشرب ونلعب ولا نحمل للدنيا هما ..

ـ ولكن .. ماذا نفعل بالمتجر والمسكن ؟.

ـ لقد فكرت فى هذا يا طفلتى .. لسوف نؤجرهما لجارنا الفحام جيوفانى بايجان اسمى وعندما نعود سوف يسلمنا اياهما كما تركناهما تماما ..

ويجب القول هنا ان جيوفانى هذا كان صديقا حميما لزوجى، وكان رجلا ضخم الجسم احمر الوجه ، اصلع الراس ، كبير الشارب ، رقيق النظرات ، يضع بين شفتيه نصف سيجار مطفأ دائما .. وكان فى حياة زوجى لا يكاد يفارقنا الا فى ساعات النوم .

وفى اليوم الذى قررت ان أرحل عن روما فى خلال ثلاثة ايام، ذهبت الى جيوفانى فى متجره الملىء باكياس وغرائر الفحم فابتسم وقال :

ـ لقد جئت لتؤجرى الى المسكن والمتجر بايجان اسمى وتتركيهما فى عهدتى حتى تعودى مع ابنتك بسلام .

وبعد يومين كنت قد اتخذت جميع الترتيبات للرحيل، وجعلت روزينا تكتب قائمتين بكل شىء فى المسكن والمتجر ولم يكن فى المتجر غير الرفوف والأخشاب ، ثم سلمت واحدة منها الى جيوفانى واحتفظت بالثانية بعد أن وقعنا جميعا عليهما .

حملت ـ أنا وروزينا ـ ثلاث حقائب .. احداها للملابس والأخريان مليئتان بالمؤن اللازمة لرحلة تستغرق أسبوعين ، ثم صحبنا جيوفانى الى المحطة لنستقل القطار الراحل الى مدينة فوندى لنستقل منها القطار الى قريتنا .

وتحرك القطار أخيرا .. وكانت معظم مركباته مليئة بالجنود الألمان ، ولم يكن فيه من المدنيين غير القليل .. وكنا ، أنا وروزينا ، امرأتين وحيدتين ، فى القطار الذى يسير بنا الى مصير مجهول. وبينما كانت روزينا تغمغم بصلاة قصيرة ، أخذت أنا اغمغم باللعنات على الجميع : على الألمان ، وعلى الحلفاء ، وعلى كل من كان السبب فى اشعال نيران تلك الحرب ..

وفى النهاية استغرقت روزينا فى نوم عميق .

« الفصــــل الثانى »

« عائلة اللصوص »

استيقظت بعد ساعة أو اكثر قليلا ، فوجدت القطار قد توقف تماما . وكانت الحرارة داخل المركبة شديدة خانقة بحيث كان من المتعذر على المرء أن يتنفس . وكانت روزينا قد استيقظت أيضا وراحت ترنو من النافذة الى هذا الشىء أو ذاك . وكذلك رأيت عددا من الركاب واقفين جماعات بالممر ينظرون الى الخارج . ونهضت بشىء من الجهد ورحت أنظر بدورى . ورأيت الشمس المشرقة ، والسماء الصافية والأرض الخضراء المكونة من الآكام المكسوة بالكروم ، وعلى بعد يسير ، أمام القطار مباشرة ،كان ثمة بيت صغير ابيض اشتعلت فيه النيران . وكانت ألسنة اللهيب تندلع من نوافذه فى سحائب من الدخان،وكانت هى الشىءالوحيد المتحرك . لان كل شىء آخر حولى كان ساكنا لا يريم . وفجأة سمعت من داخل المركبة صيحات خافتة تقول « ها هو ذا .. ها هو ذا .. » فنظرت الى السماء ،ناحيةالأفق، ورأيت ما يشبه الحشرة السوداء التى لم تلبث أن بدت طائرة توشك أن تختفى عن الأنظار .. ولكنها عادت وظهرت فجأة فوق رؤوسنا طائرة فى خط مواز مع القطار وقد ملأ هديرها الجو . واستمر هذا الهدير

لحظات ثم اذا بدوى هائل يصل أسماعنا ويجعل كل من فى المركبة ينبطح على وجهه الا انا ، وهكذا اتيح لى أن ارى البيت المشتعل يختفى تماما بعد اصابته بقذيفة مباشرة ، ولم يبق منه الا سحائب رمادية تتصاعد فوق كومة من الأنقاض .

وعاد السكون يخيم على كل شىء .. ونهض الجميع وهم لا يكادون يصدقون انهم نجوا من الموت . وعادوا يتطلعون من النوافذ الى الخلاء الذى كان الهواء فيه مشبعا بالأتربة وذرات الدخان التى جعلتنا نسعل . وبعد لحظات أخرى استأنف القطار المسير .

كان هذا أهم حدث رأيناه فى أثناء رحلتنا . وقد توقف القطار بعد ذلك بضع مرات . ومن ثم استغرق ست ساعات فى رحلة لا تستغرق عادة أكثر من ساعتين فى الظروف العادية . وكانت روزينا التى طالما شعرت بالخوف من الاغارات الجوية على روما ، لا تشعر بمثل هذا الخوف فى الريف ، وقد قالت مبررة سلوكها:

— اننى لا أشعر بالخوف هنا كما كنت فى روما .. فهنا الشمس ساطعة والهواء طلق ..

وأشد ما كان يفزعنى فى روما أن ينهار المنزل على فأموت مدفونة وانا على قيد الحياة . أما هنا فسوف تكون الشمس آخر ما تراه عيناى اذا مت .

وكان علينا أن نهبط من القطار فى مدينة فوندى . فلما تجاوزنا مدينة تيراسينا ، طلبت من روزينا أن تستعد للهبوط . وكان والدى يعيشان فى منطقة جبلية ، فى قرية صغيرة بناحية فاليكورسا حيث يمتلكان بيتا وقطعة ارض . وكان الذهاب اليهما يقتضى ركوب سيارة عامة من فوندى تصل بنا الى غايتنا فى خلال ساعة . ولكننى فوجئت — حين وصل القطار الى قرية صغيرة على سفح جبل مونت سان بياجيو — بالركاب يستعدون للهبوط وكان الجنود الألمان قد غادروا القطار فى تيراسينا ، ولم يبق فيه الا الايطاليون الذين غادروه بدورهم فى تلك القرية الجبلية ،

ومن ثم لم يبق في المركبة كلها الا روزينا وانا . وأحسست بالرضا لهذا السبب .. اذ كان اليوم جميلا ، ولم يبق امامنا الا الوصول الى فوندى ومنها الى قرية أهلى ولكن القطار ظل فى مكانه لا يتحرك وحاولت أن أشغل نفسى بالحديث مع روزينا فقلت لها :

ـ لسوف نصل بعد ساعة أو نحوها الى أهلنا فى الريف حيث الأمن والاستقرار والطعام الوافر والراحة من متاعب الحياة ..

ومضيت أحدثها عن الحياة الوادعة فى الريف ، وأخيرا اقترحت عليها أن تأكل بعض الطعام قبل أن يستأنف القطار المسير . وبينما نحن نأكل الشطائر ونشرب بعض النبيذ وقد بدات حرارة الجو فى الاشتداد ، اذا بأحد رجال السكة الحديدية يطل برأسه علينا من نافذة القطار بوجهه الملوح ويقول :

ـ طعاما هنيئا ..

وكانت نبرات صوته تجمع بين الجد والغضب ، فظننته جائعا يريد أن يشاركنا فى الطعام كالمعتاد فى تلك الظروف ، فدعوته الى مشاركتنا ، ولكنه رفض بحدة وقال :

ـ ليس هذا وقت الأكل .. هلم اهبطا من القطار بسرعة .

ـ ولكننا فى طريقنا الى فوندى ..

وقدمت اليه تذكرتينا ، ولكنه تجاهلهما وقال :

ـ الا تريان أن الجميع هبطوا هنا ؟ ان الرحلة تنتهى فى هذه القرية ، وسوف يعود القطار الى روما .

ـ الا يمضى بنا الى فوندى ؟.

ـ .. الخط مقطوع فى هذه المنطقة .

وبعد لحظة استطرد يقول بصوت اقل غلظة :

ـ يمكنكما الوصول الى فوندى سيرا فى أقل من نصف ساعة . وعليكما الاسراع فى مغادرة القطار لانه سيتحرك فى طريق العودة حالا .

وجلستنا وبقايا الشطائر فى ايدينا نتبادل النظرات فى صمت ، واخيرا قلت :

ـ انها بداية سيئة يا روزينا .. ولكن ماذا عسانا ان نفعل ؟

فقالت بشجاعتها المعتادة :

ـ لا يا أماه .. انها ليست بداية سيئة .. وفى مقدورنا ان نستقل مركبة او شيئا من هذا القبيل توصلنا الى فوندى .

وكانت روزينا تعلم أنى أحمل فى جيب سرى بملابسى الداخلية كل ما لدينا من مال . وكان هذا المال فى الواقع ثروة كبيرة تزيد على مائة الف ليرة ايطالية ، واوراقا مالية كل منها من فئة مائة ليرة او الف . ولهذا كانت مطمئنة الى أننا ، ومعنا مثل هذا المال ، نستطيع ان نتغلب على كل عقبة تعترض سبيلنا .

وهبطنا بحقائبنا الثلاث من القطار الى رصيف المحطة . ولكننا لم نجد أحدا وكذلك وجدنا غرفة الانتظار خالية تماما . وتطلعنا الى الخلاء ، فاذا هو ساكن ، مهجور ، ليس فيه غير الخضرة والشمس والهواء .. وبعض الأطيار ، وطريق ممتد امامنا .. طريق ريفى مكسو بالغبار ، ومحفوف بالأشجار ، وعلى جانب منه ، بالقرب من المحطة نافورة لمياه الشرب .. ولكنها كانت بلا ماء حين ذهبت اليها مع روزينا . وهنا خانت روزينا شجاعتها فقالت بصوت مرتعش مملوء بالخوف :

ـ أماه .. ماذا عسانا نفعل ؟

فقلت أطمئنها :

ـ لا شيء .. ان هذا الطريق يؤدى بنا مباشرة الى فوندى .

ـ والحقائب الثلاث ؟

ـ سنحملها على رءوسنا كما تفعل القرويات فى الريف .. أتطرى ؟

ثم أخرجت قطعتين من القماش وجعلت من كل منهما « حواية » وضعت احداها على راسى ، وجعلت روزينا تحذو حذوى ، ثم وضعت اكبر الحقائب فوق « الحواية » وحملت الصغرى فى يدى ،

وتركت الوسطى لتحملها روزينا بعد أن علمتها طريقة السير بها .
ولما رأيت روزينا تسير بجانبي مشدودة القامة ، بلا تعثر ، كأنها نشأت مثلي في قرية ريفية جبلية ، قلت لنفسي :
« انني نشأت في قرية كيوشياري ، ونشأت روزينا في روما .. ولكنها تحمل الحقيبة على رأسها وتسير وكأنها نشأت في الريف .. حقا أن الدم يحن » .

وسرنا مسافة ما .. وكان الطريق خاليا ، والحقول على الجانبين ليس فيها مخلوق بشرى واحد . وقد أدركت .. بحكم نشأتي الريفية — انني أسير في منطقة هجرها أهلوها اذ كانت جميع الدلائل تشير الى هذه الحقيقة ..

كانت عناقيد الأعناب تتدلى ناضجة فلا تجد من يقطفها .. وكيزان الذرة تنثني بأعوادها وقد تم نضجها .. وكانت أكوام التين المتساقطة من الأشجار نهبا للطيور .. ومع هذا كان الجو صحوا ، والسماء صافية ، وكل شيء يبدو في الظاهر جميلا . ولكن الحرب كانت تنخره كما ينخر السوس قطعة خشب ..

ووصلنا الى ابواب فوندى وقد اكتست سيقانا بغبار الطريق الأبيض حتى الركبتين ، وجفت حلوقنا ، وبلغ بنا الارهاق حد العزوف عن مجرد الحديث . الا انني استجمعت شجاعتي وقلت لروزينا في صوت متفائل :

— الآن .. سندخل خانا ونأكل شيئا ونستريح . وبعد ذلك ننظر في أمر استئجار مركبة أو عربة تحملنا الى قريتنا .

خانا .. ومركبة او عربة ؟ مجرد كلمات كانت الحقيقة تسخر منها لأننا لم نلبث أن أدركنا ونحن نسير في طرقات فوندى ، اننا قد وصلنا الى مدينة هجرها أهلها دون ان يتركوا وراءهم شيئا الا الأبواب المقلوعة المكتوب عليها ان سكانها قد هجروها بسبب الحرب .

اذن فهذا هو الريف .. الريف الذى ظننت انه الملاذ من الحياة القاسية في روما .

وقلت لروزينا بعد أن تأكدت اننا لن نعثر على مخلوق بشرى في المدينة :

ـ أتعرفين ماذا سنفعل ؟ سوف نستريح قليلا ثم نعود ادراجنا الى المحطة لنستقل القطار الى روما ...

فارتسم الخوف على وجه روزينا وقالت :

ـ لا .. لا داعى لليأس .. اذا كانت فوندى مهجورة ، فربما وجدنا فى الحقول زارعا أو راعى غنم يستضيفنا يوما أو يومين ، وبعد ذلك ندبر الأمر ...

ووافقتها .. واسترحنا قليلا .. ثم استأنفنا السير خارج فوندى ، وسرنا فى طريق محفوف بمزارع البرتقال .. وكانت الأغصان تكاد تنوء بما عليها من ثمار خضراء كبيرة . وكنا فى شهر سبتمبر ، وقد قالت روزينا وهى تشير الى هذه الأشجار :

ـ متى يجمعون البرتقال يا أماه ؟.

ـ فى شهر نوفمبر يا ابنتى .. وعندئذ ستكون الثمار مليئة بأعذب عصير ...

وخرجنا من منطقة أشجار البرتقال الى الخلاء ، مرة أخرى وما هى غير لحظات حتى رأينا على جانب الطريق بيتا صغيرا من طابقين ، فعرجنا عليه ، وجسنا خلاله وصعدنا الى الطابق الثانى ، ووقفنا بالشرفة ننظر الى أكوام التين المجموعةللحفظ والتجفيف وشعرت أن البيت ليس مهجورا ، وأن صاحبه مختبىء فى مكان منه حتى لا تقع نظراتنا عليه . وقد صدق حدسى ، اذ ما لبث صاحب البيت أن برز من مخبئه ، وكان رجلا عجوزا أعجف الجسم ، منقارى الأنف غائر العينين .. وكان الخوف يشيع فى نبرات صوته وهو يقول لنا :

ـ من انتما ..؟ وماذا تريدان ؟.

وكان يمسك بيديه منجلا كأنما يدافع به عن نفسه . ولكنى قلت له بثبات :

ـ اننا نريد مكانا للمبيت حتى ندبر أمر رحيلنا الى قرية كيوشيارى . ولسوف ندفع أجر الاقامة كما لو كنا فى فندق .

والتمعت عيناه وقال :

– ومن أين لكما المال الذى ستدفعون منه أجر الاقامة ؟

فأكدت له أن لدينا ما يكفى اقامتنا ويزيد .. وعندئذ رأينا سيدة في منتصف العمر ، علمنا فيما بعد أنها زوجته ، وكانت مثله عجفاء ، الا أنها زاخرة بالحيوية والحماس .. رأيناها تهرع الينا ثم تعانق كلا منا بدوره وتقول بحرارة :

– طبعا .. طبعا .. سوف نقدم لكما حجرتنا ، وسننام نحن فى الشرفة أو فى مخزن التين ولدينا من الطعام ما يكفينا جميعا .. انكما هنا على الرحب والسعة .

وكان الزوج عندئذ قد وقف جانبا وراح يرمقنا باكتئاب. ولكن الزوجة استمرت فى حديثها الحار قائلة :

– هلم معى .. سوف أريكما الغرفة .. وسوف تنامان على سريرى وسأنام انا وزوجى فى الشرفة .

واخذتنا الى غرفتها .. وهكذا بدأنا اقامتنا فى بيت كونشيتا وهذا هو اسم الزوجة أما الزوج الذى كان أكبر منها بعشرين عاما ، فكان يدعى فنستزيد . وكان مستأجرا لأرض رجل يدعى فيليو فستا وهو رجل من رجال الأعمال ، هرب ، كغيره ، من فوندى الى الجبال المحيطة بوادى فوندى .

وكان للزوجين ابنان فى سن الشباب : روزاريو وجيسيبو . وكان كل منهما ملوح الوجه جهم السمات ، وحشى النظرات .. وكانا لا يظهران الا نادرا ، لأنهما اعتادا الاختباء فى الأحراش المجاورة بعد ان هربا من الجيش حين اعلنت ايطاليا خروجها من الحرب ، تاركة الالمان والحلفاء يتقاتلون على أرضها . ولكن الشابين كانا يخشيان أن تقبض عليهما دوريات الفاشيست الذين لم يعترفوا بخروج ايطاليا من الحرب، وراحوا يواصلون القتال بجانب الالمان .

وفى اثناء اقامتنا التى طالت اكثر من شهر ، كشفت ، مصادفة ، ان الشابين لم يكتفيا بالهرب من الجيش ، وانما راحا يسطوان على بيوت مدينة فوندى المهجورة ويسرقان منها كل ما

تصل اليه ايديهما ، ثم يحملانه على مركبة ، ويخفيانه فى كوخ تبين مهدم داخل الاحراش . وقد شاهدت هذا الكوخ وأنا اجول داخل الأحراش ، ورأيت الأم وابنيها والجميع يحملون المسروقات من المركبة الى الكوخ . ولما لمحتنى الأم ، كوتشينا ، أقبلت الى باسمة وقالت بطريقتها الحارة :

ـ أوه .. هل رايتنا ؟ . لماذا لم تأتى وتساعدينا ؟ . اننا لا نخفى شيئا .. ان هذه الأمتعة كانت ملكا لرجل من مدينة فوندى .. وقد تركها وهرب الى الجبال . ولاشك أنها اذا لم نأخذها فسوف تتعرض للدمار وعلى كل حال فان صاحبها سوف ينال من الحكومة تعويضا عنها ، ويشترى أفضل منها .. ومن هذا ترين أننا نقوم بخدمة جليلة لنا وللجميع .

ولكننى شعرت بالخوف اذ أدركت اننى وروزينا . قد وقعنا فى أيدى عائلة من اللصوص ويبدو ان روزينا لمحت امتقاع وجهى وسالتنى عن السبب ، لم أشأ أن أفزعها . ويبدو أن كوتشينا ، حين عادت الينا أدركت ما كان يدور بخلدى ، فقالت :

ـ أرجو أن تفهمى اننا شرفاء ، واننا لا نأخذ أموال أحد .. ان ما نأخذه ليس الا امتعة مهملة تركها اصحابها لأنهم فى غير حاجة اليها .. ويمكننى ان اثبت لك الآن اننا شرفاء حقا ..

ثم نهضت ونقرت جدار الغرفة ، فاذا هو أجوف مما دل على أن وراءه فراغا .. وعادت تقول :

ـ اتعرفين ماذا وراء هذا الجدار .. ان وراءه مخبأ سريا وضع فيه السيد فيليوفستا كل مقتنياته الثمينة قبل الفرار .. ان فيه جهاز ابنته كاملا .. وفيه فضيات وخزف وملابس ومفروشات وتحف تقدر بثروة كاملة .. وقد ترك هذا كله أمانة لدينا لأننا ننتمى الى جمعية واحدة هى جمعية الاخوة جيوفانى التى أقسم اعضاؤها الا يخون احدهم الآخر مهما تكن الظروف .

ولكننى لم اقتنع بحديثها ، لأنى كنت أعلم من تجاربى ، ان اللص المحترف يبقى لصا طوال حياته .

ولهذا السبب قررت أن أدبر الأمر للرحيـــل عن بيت هؤلاء اللصوص قبل ان يفطنوا الى ما أحمله بين ملابسى من ثروة ،ولأن اقامتنا بينهم كانت مليئة بالمتاعب والمنغصات فقد تبينا منذ الليلة الأولى ان النوم فى غرفة كوتشينا مستحيل بسبب جيوش البق التى تحتلها ولست أنسى أول ليلة أمضيناها ســـاهرين فى تلك الغرفة ، ننظر بفزع الى « طوابير » البق التى كانت تزحف لتمتص الدماء من أجسادنا ..

ومن ثم آثرنا النوم فى مخزن التبن على النوم بين هذه الجيوش من الحشرات مصاصة الدماء .

ولما افضيت بمخاوفى الى روزينا ، وافقتنى فورا على وجوب الرحيل . وقد أخبرتنى انها تخشى على نفسها من نظرات الشابين الجائعة اليها ولكننى طمأنتها قائلة ان احدا لن يستطيع أن يمسها بسوء الا اذا قتلنى أولا .. ولم يكن فى مقدور أحـد أن يقتلنى بسهولة ، لأنى كنت أخفى فى طيات ملابسى سكينا حاد النصل .

ومما حفزنا على الرغبة فى الهرب من هذه الاسرة ، اننا فوجئنا ذات يوم ، ونحن جالستان تحت شجرة بالقرب من البيت ، باثنين من الحرس الفاشستى ، وهما شابان احدهما اعجف أصلع يضع على عينيه نظارة طبية ، والآخر قمحى يشبه القرد وجها وجسما .. وكان كل منهما يحمل بندقية ينوء بها ، ويبدو عليه الخوف منها .

ولما رأتهما كوتشينا ، اسرعت اليهما وحيتهما بحرارة كعادتها ، وقالت للثانى وقد أطلقت عليه ــ بحق ــ اسم وجه القرد :

ــ حسنا يا وجه القرد .. ماذا جاء بكما الآن .. ماذا تريدان ؟

فقال وجه القرد وهو يكشر عن أنيابه :

ــ الا تعلمين ماذا نريد يا كوتشينا ؟ اننا نريد ابنيك الهاربين من الجيش ..

فهتفت قائلة وهى تصطنع الدهشة :

ــ ابنى ؟. أين هما ؟. ارجوك ان تخبرنى بمكانهما .. اننى لم ارهما منذ أن رحلا للقتال فى يوغوسلافيا ؟ أتوسل اليك يا وجه القرد أن تأخذنى اليهما .. اننى أكاد أفقد عقلى قلقا عليهما ..

ولكن الشابين لم يقتنعا بحديثها ،وأكدا لها أنهما لن يستريحا الا اذا قبضا على ابنيها الهاربين .. وأنه من الأفضل لها وللجميع أن تسلمهما حتى لا يصدر الحكم عليهما بالاعدام .

وعندئذ قالت وهى ترفع يديها كأنما تشهد السماء على صدقها :

ـ كيف اسلمهما وأنا لا اعرف مكانهما .. اننى مستعدة أن أسلمكما طعاما .. وشرابا .. لدينا كمية من التين .. وبعض السجق .. وبعض الخبز ، وزجاجة نبيذ .. هذا ما أملكه .. ولكنى لا املك شيئا آخر .

وكان هذا ما يهدف اليه الفاشستيان ، اذ سرعان ما جلسا تحت الشجرة وراحا يلتهمان ما قدمته اليهما كوتشينا من طعام وشراب وبعد أن فرغا ، نظر وجه القرد الى روزينا وراح يتأملها ،ثم سأل كوتشينا فجأة وهو يشير الينا :

ـ من هاتان المرأتان ؟ .

وقبل أن ترد كوتشينا ، أسرعت أقول :

ـ اننى بنت عم كوتشينا .. جئت مع ابنتى من فاليكورسا .

وأكدت كوتشينا هذا الزعم قائلة بحماس :

ـ نعم .. نعم .. انها سيزيرا ابنة عمى ، وقد جاءت مع ابنتها روزينا للاقامة معى ، لأن الدم أقوى من الماء كما تعلم .

ولكن وجه القرد لم يقتنع بحديثها ، الا أنه تظاهر بالاقتناع ثم قال موجها الحديث الى روزينا وهو يمد يده ليداعب ذقنها :

ـ اننا فى المعسكر محتاجين الى طاهية جميلة مثلك ، فهل تأتين معنا يا روزينا ..

وعندئذ ضربته على يده بقوة وقلت

ـ ابعد يدك عنها يا وجه القرد .. ووثب واقفا وصوب فوهة البندقية نحوى ، ولكن يديه كانتا ترتعدان ، ومن ثم أزحت الفوهة بعيدا وكأنها عصا ، وقلت له فى تهكم :

ـ اتحسب انك تخيفنى بهذه البندقية التى لا تعرف كيف تستعملها ؟ . انك مخلوق طفيلى ولا شك انك كنت صعلوكا متعطلا

قبل ان تنضم الى عصابات الفاشيست لتأكل وتشرب مجانا كما تفعل الآن .. ابتعد عني والا حطمت راسك بأقرب حجر .

وكشر وجه القرد عن انيابه في ابتسامة صفراء ، ثم قال :

ـ لو كنت رجلا لقتلتك فورا ، ولكنني لم أعتد قتل النساء .

ثم نظر الى كوتشينا وقال وهو يهم بالانصراف مع صاحبه :

ـ اسمعي يا كوتشينا .. اذا لم تحضر هذه الفتاة غدا صباحا الى المعسكر لتشتغل طاهية ولتقوم على ترتيب أسرتنا ، فسوف نقوم بحملة واسعة النطاق للقبض على ابنيك .. اننا نعرف تماما انهما يختفيان في هذه المنطقة ..

وبعد انصرافهما ، قالت كوتشينا لنا :

ـ ما رأيك يا سيزيرا .. ان ابنتك ستكون في أمان تام حين تعمل طاهية بالمعسكر .. ولا شك انها لن تشعر بالجوع يوما .. وكذلك انت .

وأدركت فورا أن كوتشينا تريد أن تضحي بابنتي لانقاذ ولديها ، وكان لها بعض العذر كأم .. ومن ثم قلت بهدوء :

ـ سوف نفكر في هذا الامر غدا يا كوتشينا ..

ولكن ما كادت شمس اليوم التالي تبزغ من وراء الجبال ، حتى كنت ـ مع روزينا ـ نسير في الطريق الى المنطقة الجبلية ، هاربتين من عائلة اللصوص ، ومن معسكر الفاشيست .

« الفصل الثالث »

« على ذروة الجبل »

وانطلقت في الطريق العام الى ناحية الجبال التي كانت ترتفع تدريجيا في شمالي وادي فوندي وبدأ الصباح يسفر . وتذكرت ذلك الصباح الآخر الذي هربت فيه من روما ، وقلت لنفسي ، كم صباح آخر سوف أراه وأنا أهرب بابنتي من مكان الى آخر قبل أن أعود الى بيتي ؟.

وكان الضباب الخفيف يشمل المنطقة كلها بغلالة رمادية عجيبة على حين بدت السماء فوقه شاحبة تتلألأ في صفحتها بعض انجم

باهتة صفراء . واستهوانى منظر الطبيعة الساجى فى تلك الساعة من الصباح المبكر ، مما جعلنى أقول لروزينا فى تفاؤل :

ـ من ذا يظن ان هناك حربا طاحنة تجرى فى العـــالم ؟ ان الانسان هنا ، فى حضن الطبيعة يحسب أن الدنيا كلها تعيش فى سلام .

وما كدت أفرغ من حديثى حتى سمعت زفيف طائرة يأتى من بعيد ، وما لبثت ان رأيتها مقبلة نحونا بسرعة هائلة ، فأمسكت بذراع روزينا واندفعت معها الى حفرة طينية فى مزرعة ، وما أن انبطحنا على وجهينا حتى سمعت الطائرة تمر بالقرب منها وهديرها يكاد يصم اذاننا . ولما ابتعدت ، نهضت مرتعـــدة واسرعت الى حقائبنا الثلاث التى تركتها فى العراء فاذا هى مليئة بالثقوب ، واذا بجانبها مظاريف الرصاصات الفارغة وأدركت ـ وأنا أرسل على الطيار سيلا من اللعنات ـ انه حاول قتلنا بدافع من العبث ، تماما كما يفعل أى غلام يحمل بندقية رش حين يرى عصـــفورتين على شجرة .. انه يطلق عليهما البندقية ليعبث .. وهكذا لم نكن فى نظر الطيار اكثر من عصفورتين اراد ان يتسلى بقتلهما .

وقالت روزينا ونحن نستأنف المسير :
ـ قلت يا أماه ان الحرب لم تصل الى الريف .. فلماذا اراد هذا الرجل ان يقتلنا ؟ .

فأجبت قائلة :
ـ كنت مخطئة يا ابنتى .. ان الحرب فى كل مكان .. فى الريف وفى المدن على السواء .

وبعد مسير نصف ساعة وصلنا الى مفترق فى الطريق .. وكان على اليمين جسر يمتد فوق نهر صغير ، وبعده رأيت بيتا أبيض أقرب الى الكوخ منه الى البيت . وكنت اعلم ان تومازينو يقيم فيه . ولما نظرت من فوق الجسر ، رأيت امرأة تغسل بعض الملابس على حافة الجدول فسألتها قائلة بصوت مرتفع :
ـ هل يقيم تومازينو هنا ؟ .

فقالت وهى تعصر قطعة من الملابس:

ــ نعم . ولكنه ليس موجودا الآن .. لقد ذهب الى فوندى.

ولم يكن أمامنا الا أن ننتظر، فجلسنا على حجر كبير نستريح، ومر الوقت بطيئا ، واشتدت حرارة الشمس ، وبعد ساعة أو نحوها ، رأينا رجلا قصيرا يتقدم ببطء نحونا وهو يأكل برتقالة وكان له وجه طويل غير حليق ، وانف معقوف ، وعينان جاحظتان، وسرعان ما عرفت أنه تومازينو الذى كان صورة ناطقة لليهودى التائه .

وعرفنى بدوره ، لأنه كان من العملاء الذين طالما اشتريت منه السلع التموينية لأبيعها فى روما سرا . ومن ثم أقبل نحوى مطمئنا وان كانت أمارات الشك تتراقص فى عينيه . وقلت له بعد أن حييته :

ــ تومازينو .. لقد تركت الاقامة عند كونشيتا ، ولا أدرى الى أين أذهب مع ابنتى الآن . الا يمكن ان تساعدنا ؟

فقال وهو يلفظ بذرة البرتقال فى وجهى :

ــ كيف يمكن أن أساعدك الا تعرفين أن على كل انسان ان يساعد نفسه فى هذه الأيام ؟.

ــ الا تعرف أحدا من الفلاحين فى الجبال يمكن ان نقيم معه حتى ينزل الحلفاء ايطاليا ؟ .

ــ اننى لا أعرف احدا ..وجميع الأكواخ مشغولة كما علمت. ولكن اذا ذهبت الى الجبال فربما وجدت كوخا أو مخزن تين تستأجرينه .

ــ لا .. اننى لن اذهب هكذا على غير هدى .. ان أخاك فيليو يقيم فى الجبال ، وأنت تعرف معظم الفلاحين فى هذه المنطقة ، ولهذا يجب أن تسدى الينا نصيحتك .

ــ اتعرفين ماذا أفعل لو كنت فى مكانك ؟

ــ ماذا ؟.

ــ كنت اسرع بالعودة الى روما .

وأدركت فورا أنه يرفض مساعدتنا لانه يظن اننا مفلستان .

وكان كما أعلم عنه من عباد المال .. كان واحدا من الذين يبيعون انفسهم من أجل الحصول على اى مبلغ من المال . ومن ثم ادركت إن الوقت قد حان لاخبره باني أحمل مبلغا كبيرا من المال .. كان في مقدوري أن اثق به ، لاننا معشر التجار ، قد اعتدنا أن يأتمن بعضنا بعضا ، وهكذا قلت :

– انني لن اعود الى روما .. ولكنني مستعدة لان ادفع أجر اقامتي بسخاء في أي مكان آمن كما اني في حاجة لشراء كمية كبيرة من المؤن بالثمن المناسب : أريد زيتا وبقولا ودقيقا وبرتقالا وما الى هذا كله . ولسوف إدفع الثمن نقدا ، فان معي أكثر من مائة ألف ليرة فاذا أبيت ان ترشدنا او تبيع لنا ما نحتاج اليه ، فسوف أبحث عن تاجر غيرك .

ثم امسكت بذراع روزينا ونهضت قائلة :

– هلم يا روزينا .. ان التجار كثيرون ، وسوف نجد من يقدم لنا حاجاتنا ويأخذ الثمن نقدا .

والتمعت عينا تومازينو ، والقى ببقية البرتقالة بعيدا ، وأسرع وراءنا قائلا في توسل :

– انتظري يا سيزيرا .. لماذا هذا الغضب كله .. ماذا دهاك ؟ ارجو ان تتوقفي حتى نستطيع التفاهم بهدوء .

وتوقفت .. وسرعان ما قادنا الى كوخه حيث جلسنا – نحن الثلاثة – على الفراش الوحيد في الفرفة ، وحيث قال بصوت رقيق :

– حسنا جدا .. لنكتب قائمة بكل ما تحتاجين اليه .. انني لا أستطيع ان أعدك بشيء لان الفلاحين استغلوا هذه الظروف اسوأ استغلال وراحوا يرفعون الأسعار كل يوم ولهذا اتركي لي مسألة السعر لأحددها بلا مناقشة . اما عن مكان للاقامة في الجبال فاني ذاهب اليوم الى اخي هناك ، ويمكنكما أن تأتيا معي .. ولعلكما تجدان كوخا معروضا للبيع او للايجار .

ثم تناول من مفكرته القذرة ورقة بيضاء وبلل طرف قلم كوبيا بشفتيه وقال :

ـ والآن اذكرى لى حاجتك من المؤن .

واخذت املى عليه ما اريد : كمية كبيرة من افخر انواع الدقيق ، وكمية كبيرة من دقيق الذرة وكمية من الزيت ، وبضعة ارطال من البقول : بازلاء جافة وفاصوليا ولوبيا وكمية من جبن المعز الجاف ، وكمية من الزبد وأخرى من السجق وما الى هذا .

ووضع القائمة فى جيبه ، وغاب قليلا ثم عاد ومعه رغيف كبير من الخبز وكمية قليلة من السجق وقال :

ـ هذه هي الدفعة الأولى من التموين .. يمكنكما ان تأكلا الآن وان تنتظرانى هنا .. ولسوف أعود بعد ساعة .. ويحسن أن تدفعا لى الآن ثمن الخبز والسجق .. أما الباقى فعند التسليم

فقدمت اليه ورقة من فئة المائة ليرة ، فأخذها وفحصها جيدا ، ثم أعطانى الباقى نقودا من مختلف الفئات الصغيرة .

وبعد انصراف تومازينو،أخذت معروزينا نأكل الخبزوالسجق وانا شاردة الذهن .. واخيرا قلت لها كأنى افكر بصوت مسموع :

ـ أرايت يا روزينا ماذا يمكن أن يفعل المال ؟.

فأجابت قائلة :

ـ نعم .

وبعد أن فرغنا من الطعام ، رقدنا على الفراش الخشن نحو نصف ساعة ، ثم استيقظنا على صوت تومازينو المتفائل وهو يقول :

ـ هلم استيقظا .. لقد حان موعد الرحيل ..

وكانت امارات وجهه تنم عن مدى سروره بالربح الذى سيظفر به منا . ونهضنا وتبعناه الى خارج الكوخ حيث وجدنا حمارا محملا بعدد كبير من الأكياس والغرائر وقد توجت هذا كله حقائبنا الثلاث .

وبدأنا الرحلة الى الجبال .. وكان تومازينو يسير امامنا ممسكا بمقود الحمار ، ومرتديا كامل ملابسه .. « السترة » السوداء ، و « البنطلون » الأسود المخطط ، والقبعة السوداء ،

والحذاء الأسود المصنوع من الجلد السميك والمكسو بطبقة من الطين .

وعند سفح الجبال ، انحرفنا الى طريق مهدته حوافر الحمير والبغال ، وكان يصعد ملتويا بين « المصاطب » الزراعية الجبلية . وكانت هذه « المصاطب » عبارة عن درجات عريضة بعضها فوق بعض ترتفع من السفح الى القمة ، وتمتد في دوائر ومنعطفات ، وكان الزارعون يحملون اليها الطمي والطين ويزرعونها قمحا وذرة والوانا مختلفة من الخضر والبقول مما يجعل أهالي المنطقة يعيشون في حالة اكتفاء ذاتي ..

وواصلنا الصعود حتى بلغنا ذرا الجبل ، ومن هناك رأينا منطقة كبيرة منبسطة تكسوها الأحراش والصخور الحمراء ، ولمحنا بين هذه وتلك عددا من الأكواخ المختلفة الأحجام . وقد أشار تومازينو اليها قائلا :

ـ هذه هي احدى القرى الجبلية .. وان فيها مخابىء وكهوفا تجعل من اليسير على أي انسان غريب أن يعثر على أي انسان مختبىء فيها .

وبينما هو يتحدث رأينا قرويا يحمل فأسه ويتقدم نحونا من « مصطبة » جانبية وكان يرتدي قميصا مرقعا « وبنطلونا » يكاد لا يبدو من كثرة ما عليه من رقع مختلفة وطين . وما أن رآه تومازينو حتى حياه قائلا :

ـ طاب يومك يا باريد .. ان هاتين السيدتين لاجئتان من روما وتبحثان عن مأوى في الجبل حتى ينزل الحلفاء بايطاليا ويحررونا من النازيين والفاشيست . ولا شك أن هذا كله لن يستغرق غير أيام معدودة .

ولكن ذلك المدعو باريد ظل ينظر الينا في بلاهة دون أن ينطق بكلمة .. وعندئذ قال له تومازينو :

ـ ومن البديهي انهما ستدفعان اجر الاقامة بسخاء ، وثمن كل شيء يقدم اليهما .. ان لديهما ما يكفي من المال ..

وهنا لانت ملامح باريد .. وتقدم خطوة ، وقال ان لديه مكانا يشبه المربط أو المخزن بجوار البيت اعتادت زوجته أن تعمل فيه على المنسج معظم ساعات النهار ، وان من الممكن أن تستأجرا جزءا من هذا المكان للاقامة .

وقال تومازينو :

ـ حسنا يا باريد .. عد الى عملك ، وسوف أمضى مع السيدتين الى زوجتك لتعد لهما هذا المكان .

وعاد باريد الى عمله ، واستأنفنا السير نحو القرية الواقعة فى ذروة الجبل .

وما هى غير لحظات حتى وصلنا اليها .. وكانت مجموعة من الاكواخ المتناثرة حول ساحة واسعة . وكان كل كوخ لا يزيد على غرفة أو غرفتين صغيرتين للنوم فقط . اما الطعام ، فكان السكان يتناولونه فى الساحة أو أكواخ صغيرة جدا مخصصة للطهو .. وكانت هذه الأكواخ ـ كما رأيتها فيما بعد ـ اقرب الى عشاش الدجاج منها الى أماكن لاقامة البشر .

وحين وصلنا الى الساحة ، رأينا عددا من الأشخاص يجهزون مائدة مستطيلة ، كبيرة للطعام . وكانت تقع فى ظلال شجرة تين ضخمة .. وكان هؤلاء الاشخاص ، رجالا ونساء يحملون الأطباق والصحاف والأوعية من الأكواخ ويضعونها على المائدة التى كانت المقاعد حولها عبارة عن صناديق فارغة أو جذوع الشجر .

وما ان رآنا واحد من هؤلاء ، حتى اسرع الينا قائلا لتومازينو :

ـ لقد جئت فى الوقت المناسب لتشاركنا فى وجبة الغداء .

وكان المتحدث هو فيليبو ، شقيق تومازينو .. ولكننى لم أر فى حياتى شقيقين يختلف أحدهما عن الآخر فى كل شىء ، كما رأيت هذين الشقيقين . كان فيليبو بدينا ، ضاحك الوجه ، متألق العينين ، مرح السمات . وكان مثل أخيه يعمل فى ميدان التجارة على نطاق واسع .. يشترى كل شىء ، ويبيع كل شىء ويظفر فى كل صفقة بارباح طائلة .

ولما علم فيليبو أننا لاجئتان من روما ، وأن لدينا مالا كثيرا ، وانني مثله أعمل في ميدان التجارة ، رحب بنا في اسراف وهتف قائلا :

ـ على الرحب والسعة .. وما دمتما قد وصلتما الآن ؟ فيمكنكما أن تشتركا معنا في هذه الحفلة .. انها حفلة عيد زواجي السنوية .. ولسوف أقدم لكما ما تحتاجان اليه من طعام حتى تصل مؤنكما .. ولاشك أن الأمر لن يطول غير أيام معدودة ثم يهبط الحلفاء ويطردون الألمان ويغرقوننا بألوان من الطعام والشراب والملابس .. وكل شيء سيكون على ما يرام .

ثم همس لي قائلا :

ـ كم لديك من المال ؟

فلما أخبرته ، قال بابتهاج :

ـ وأنا أيضا لدى الكثير منه ، وسوف يكفيني ما معي حتى لو تأخر هبوط الحلفاء ببلادنا عاما كاملا ..

وكان يتحدث الى حديث الند للند ، أو حديث التاجر لزميله التاجر ، ولكنه نسى في غمرة حماسته أن القيمة النقدية كانت تتضاءل يوما بعد يوم كلما اشتد الاقبال على مواد الطعام ، وأن المال الذى يكفى عاما ، لم يكن ليكفى في هذه الحالة بضعةاشهر .

وعاد يقول وهو يمضى بنا الى المائدة :

ـ اطمئنى يا سيزيرا أنت وابنتك .. فمادام معنا كفايتنا من المال فسوف نعيش هنا في أمان نأكل ونشرب ونلهو حتى يأتى الحلفاء ويغرقونا بالقمح والزيت والزبد والبقول والملابس .. وعندئذ نعود الى تجارتنا والى أرباحنا ..

وقلت أعارضه ، لأنى وجدت انى لابد أن اقول شيئا :

ـ ولنفرض أن الحلفاء تأخروا .. أو انهم لن يهبطوا ، وان الالمان كسبوا الحرب في النهاية فماذا يكون الحال ؟ .

فقال بكل بساطة :

- سواء عندي أن يكسب الحلفاء الحرب أو الالمان .. المهم أن تنتهي وأن نعود نحن الى اعمالنا والى حياتنا العادية .

قال هذا بصوت مرتفع .. وعندئذ رد عليه ابنـه الذى كان واقفا على حافة الساحة يرسل البصر الى وادى فوندى البعيد :

- اذا كسب الألمان الحرب فسوف أقتل نفسى .

فدهشت من لهجته وقلت :

- لماذا تكره الألمان الى هذا الحد .

- اننى لا اكره الالمان ، ولكننى اكره النازيين .. انهم كالأفاعى السامة التى تحاول الايذاء بلا مبرر ..

وتدخل والده وقال :

- دعونا من الألمان والحلفاء ، وهلم الى الطعام قبل أن يبـرد الحساء .

واذا نسيت فى حياتى شيئا ، فلن أنسى منظـر تلك المائدة الكبيرة الموضوعة فى ساحة قرية فى ذروة الجبل ، وفى أصـيل يوم من ايام سبتمبر ، صفت سماؤه ، ورق نسيمة ، حتى خيل الى اننى فى عالم خيالى جميل لا شأن له بالحروب .

وكانت المائدة مثقلة بألوان مختلفة من الطعـام والشراب : صحاف من السجق ، وشرائح من اللحم ، وأنواع من الجبن ، وارغفة ضخمة من الخبز وكمية كبيرة من البيض المسلوق . وزبو وحساء وبقـول مسلوقة فى اللحم وفطـائر وحنوى . وزجاجات كبيرة من مختلف أنواع النبيذ .

وكان هذا كله يحمل من الكوخ الخاص بطهو الطعـام لأسرة فيليبو . وكانت أسرته مكونة منه ، ومن زوجته الشاحبة النحيلة ، وابنته الشابة التى كان الجمال ينقصها ، ومن ابنه الذى عارضه فى شأن الألمان .. وكان شابا قصيرا ضعيف البنية ، يضع على عينيه نظارة طبية ، وكان - كما علمنا - قد تخرج فى كلية الطب ، والتحق بالجيش ، ثم هرب منه بعد أن خرجت ايطاليا من الحرب .

واشتركنا في الطعام مع أهل هذه القرية التي لم يكن عدد سكانها واللاجئين اليها يتجاوز المائة ، رجالا ونساء واطفالا .. وظللنا على المائدة نأكل ونشرب ثلاث ساعات .. ولما بلغ فيليبو ذروة النشوة ، راح يقول متفاخرا مزهوا :

ـ دعوني أقل لكم أن الحرب شر فقط على الحمقى ، والبله ، أما على غير هؤلاء فهي الخير الوافر . أتعرفون ماذا يكتب التجار في نابلي على لافتات متاجرهم ؟ انهم يكتبون هذه العبارة «لايوجد بله هنا » وأنا أريد أن أقول هذا ايضا عن نفسي .. لأنها الحقيقة الكاملة .. انني لست أبله ، ولن أكون يوما ما .. ان العالم في نظري ينقسم الى قسمين : عالم البله .. وعالم « الشطار » ولا اعتقد أن هناك شخصا يجب أن ينتمي الى العالم الأول .. ان « الشطارة » لا تحتاج من المرء الا أن يفهم بسرعة ، والا أن يجعل عينيه مفتوحتين لانتهاز الفرص السانحة ، أما البله والحمقى فهم الذين يصدقون ما تكتب في الصحف ، وهم الذين يشتركون في حرب لا تهمهم في شيء ، ثم تبلغ بهم البلاهة حد التهور وتعريض أنفسهم للذبح أما « الشطار » .. مثلي .. ها .. ها .. فانهم على العكس تماما .. وهذا يكفي .. ونحن الآن في وقت يزداد فيه الأبله بلاهة ، فينتهي أمره الى الدمار أو الموت ، ويزداد فيه « الشاطر شطارة » ، فيستفيد ويزدهر ويثرى ويحتفظ برأسه سليما على كتفيه ..

ويشرب فيليبو كأسا أخرى ويستطرد قائلا :

ـ أتعرفون المثل القائل : خير لي أن أعيش حمارا من أن أموت فيلسوفا ؟ انني أحب هذا المثل وأطبقه على نفسي . ان عصفورا في اليد خير من ألف على الشجرة . وان الأحمق فقط هو الذي يعد ثم يفي بالوعد .. نعم .. اننا الآن في عالم لا يحتمل الحمقى والبله .. ولهذا فانهم يموتون آلافا كل يوم .. انظروا ماذا حدث لذلك الأحمق موسوليني الذي ظن ـ بحماقته ـ انه قادرعلى المشاركة في غنائم الحرب اذا هو طعن فرنسا من الخلف عند سقوطها تحت أقدام النازيين ؟ ماذا جرى له الآن ؟ انه لم يستطع

ان يحتفظ بمكانته ولا بسلامة بلاده ؟ ولم يظفر من الحرب الا بالمذلة والهوان كل هذا لانه احمق .. لانه لم يعرف كيف يستعل الموقف ويستفيد من الحلفاء ومن الألمان على السواء .

ويتوقف فيليبو مرة اخرى عن الحديث حتى يشرب مزيدا من الخمر ، ثم يستطرد قائلا :

ـ استمعوا الى واحفظوا أقوالى .. ان الحكومات تأتى وتروح وان الحروب تشتعل على حساب الفقراء والمساكين الذين لاحول لهم ولا قوة .. ثم تنتهى الحروب ويأتى السلام ويتغير كل شيء الاشيء واحد .. هو التجارة .. يأتى الحلفاء .. أو يأتى الألمان وهذا كله لا يهم لأن المهم هو التجارة .. وما دامت الأعمال التجارية مزدهرة فكل شيء سيبقى على احسن حال .

ويبدو ان هذا الحديث أرهقه الى حد كبير ، لانه ما كاد يفرغ منه حتى كان العرق قد تفصد على وجهه ، وارتعشت يداه وهو يتناول كأسه الأخيرة .. اما ضيوفه ـ ومعظمهم من اللاجئين ـ فقد راحوا يعربون له بكل الوسائل عن موافقتهم على كل كلمة قالها ..

« الفصل الرابع »

« ميشيل فيليبو »

وعاد فيليبو يكرر الحديث عن البله والحمقى ، وعاد ضيوفه ـ كالحشرات الطفيلية التى تعتمد فى حياتها على غيرها ـ يهتفون له ويؤيدون كل عبارة ينطق بها . وفجأة رأينا ابنه الشاب ميشيل يقفز واقفا ويقول فى احتياج :

ـ اننى واحد من البله والحمقى .. ويبدو أننى الأبله الوحيد هنا ، وما دام لا يليق بالابله أن يجلس مع « الشطار » ، فانى سانصرف عن هذا المجلس ..

واستدار وسار بعيدا ..

ونظر الجميع الى فيليبو ، الوالد ، وقد تخامرهم الخوف من أن يغضب ويفض الجلسة ولكن فيليبو كان قد بلغ درجة من السكر جعلته يضحك عاليا ويرفع كأسه قائلا :

ـ في صحة ابني ميشيل .. لا شك أن في كل أسرة فردا أبله .. ولن يغيرها هذا بطبيعة الحال .

ولما ضحك الجميع وشربوا ـ نخب ميشيل الذي وقف على حافة الساحة ـ عاد فيليبو يقول متهكما :

ـ يمكنك أن تظل ابله كما تشاء ، لأني هنا احميك من مكر «الشطار» .

وقال أحد الجالسين منافقا :

ـ ان فيليبو يجمع المال بالجهد والعرق ، على حين ينفقه ابنه على الكتب ولغو الحديث ..

ولكن فيليبو ـ الذي كان فخورا بابنه سرا ـ اعترض قائلا :

ـ لا .. ان ميشيل شاب مثقف له مبادىء مثالية .. ولكن ليس لهذه المبادىء ، مجال في ظروف الحرب يا ولدى .

وبدات الشمس تختفي وراء الجبال في المغرب ، ونهض الرجال عن المائدة مع فيليبو وذهبوا الى كوخه ليلعبوا الورق ، وشغلنا نحن النساء بحمل الصحاف والأواني والأطباق الفارغة وغسلها في كوخ فيليبو . ولما دخلت غرفة الكوخ الواسعة اول مرة ، رايت بعض الرجال متحلقين في وسطها يلعبون الورق ، على حين كان حول الجدران اكياس وغرائر كثيرة مليئة بمختلف انواع المؤن .. دقيق وبقول مختلفة الاصناف وعلب محفوظة ، كما رايت الوانا من القديد اللحم والسجق معلقة في النوافذ . وهكذا أدركت ان فيليبو أحد « الشطار » حقا الذين عرفوا كيف يجمعون اكبر قدر من المأكولات لتحفظ عليه وعلى أسرته الحياة الى ان يهبط الحلفاء أو تنتهي الحرب على نحو ما .

وكانت زوجته وابنته قابعتين على حشية فى ركن الغرفة وفى حالة استرخاء وتبلد بسبب الجو الخانق وعسر الهضم . ولما رآنى فيليبو ، هتف قائلا :

ـ ارأيت يا سيزيرا كيف استطعت أن أجهز نفسي بكل شيء استعدادا لمواجهة جميع الاحتمالات المرتقبة . الست « شاطرا » فعلا ؟ . حسنا حسنا . لسوف يذهب بك باريد الى كوخه ويقدم اليك مكانا للمأوى واعتقد أنك ستشعرين معنا بالراحة والاستقرار والأمن ..

ولم اجب عليه بشيء ، وانما وضعت ما كنت احمله من أطباق وصحاف مغسولة ،وغادرت الكوخ حيث وجدت باريد فى انتظارنا فذهبنا معه الى المخزن الذى كانت تعمل فيه زوجته لويزا على المنسج من الصباح الى الغروب .

ووقف باريد في مدخل المخزن مترددا .. وعندئذ تناولت من جيبى ورقة من فئة مائة ليرة ، كنت قد اعددتها لهذه اللحظة ، وقدمتها اليه قائلة :

ـ هذه هى الدفعة الأولى من الايجار وما قد تحتاج اليه لاقامتنا .. اطمئن فسوف ندفع ثمن كل شيء ..

واختطف باريد الورقة ملهوفا .. والواقع ان هؤلاء الزارعين من سكان الجبل كانوا يقيمون للمال وزنا كبيرا لأنهم قلما يحصلون عليه بسبب حياتهم القائمة على الاكتفاء الذاتى . ذلك أنهم كانوا ينسجون من أصواف الغنم ملابسهم ، ويصنعون من جلودها أحذيتهم البدائية ويأكلون مما يزرعونه على « المصاطب » الجبلية أو مما يصنعونه من ألبان المعز والأغنام . ومن ثم كان المال لايصل الى أيديهم الا نادرا ..

وقال وهو يدس الورقة المالية فى جيب داخلى بثوبه المرقع :

ـ يمكنكما الاقامة فى هذا المخزن اذا لم تحفلا بصوت المنسج ..

وكان المخزن عبارة عن كوخ مكون من غرفة كبيرة ، يحتل المنسج نصفها ، ويقوم في النصف الآخر سرير بدائي عليه حشية بداخلها أوراق الذرة الجافة بدلا من القطن . ولم يكن بالغرفة غير نافذتين صغيرتين لهما مصاريع من الخشب . وكان السقف مائلا بشدة ، بحيث لم يكن في مقدور الانسان أن يقف منتصبا . ومن ناحية النظافة فقد وجدنا أنسجة المناكب تكسو جميع الجدران ، فضلا عن قذارة الأرض التي لم تكن مرصوفة بشيء .

وقالت روزينا وهي ترمق هذا كله باشمئزاز ونفور :

ـ هل سنقيم هنا يا أماه ؟

فقلت لها معاتبة :

ـ نعم يا ابنتي .. ان نصف رغيف خير من الموت .

ثم نظرت الى باريد وقلت له

ـ ليس لدينا اغطية ، فهل يمكنك ان تزودنا ببعض منها .

ووافق باريد بعد مساومة طويلة على قيمة ايجار الاغطية . وهكذا رحنا نتبادل المساومة على ايجار كل ما نحتاج اليه .. المقاعد .. والصحاف ، والاناء النحاسي الكبير للاغتسال وكل ما يحتاج اليه الانسان لاقامة قد تمتد بضعة اشهر .

ولما سألته عن المكان الذي يمكننا أن نطهو فيه طعامنا ، حاول أن يحدد له ايجارا معينا ، ولكنني لم أقبل حتى أعاينه . وذهب بنا اليه فاذا هو ـ أي المكان ـ أقرب الى عش الدجاج منه الى شيء آخر .. كان كوخا حقيرا صغيرا له باب واحد ضيق ، وبداخله المظلم « كانون » للطهو عبارة عن بضعة أحجار مقامة في شبه دائرة ، وبجانبها كمية من أغصان الشجر الأخضر للوقود . وكان الدخان يملأ الكوخ بسبب هذا الوقود الأخضر ويكاد يخنق الأنفاس ويرسل الدموع غزيرة . ولما ألفنا الظلام واستطعنا الرؤية ، لمحنا سيدة عجوزا كأنها حيوان من مخلفات التاريخ جالسة في ركن من الكوخ تعمل على مغزل يدوي لانتاج الخيوط . وقال باريد انها أمه العجوز

وقالت هى انها لا تكاد تفارق هذا الكوخ « الآمن » الذى اعتادته حتى أصبحت لا تطيق الخروج منه ..

واعترف اننى شعرت بخيبة أمل بالغة وأنا أرى هذا العش الذى قضى علينا - روزينا وانا - ان نطهو فيه طعامنا ، وأن نأكله فيه، وربما نمضى بضع ساعات داخله ، بعيدا عن ضجة المنسج التى لا تهدأ طوال ساعات النهار فى المخزن .

وهممت قائلة كأنما أواسى نفسى :

- من حسن الحظ ان اقامتنا هنا لن تطول . فمن المرجح أن يهبط الحلفاء بعد أيام قليلة .

وقال باريد فى دهشة :

- الا يعجبك هذا الكوخ ؟.

- انه فى قريتنا يسمى عش دواجن أو حظيرة معز .. لا اكثر .

واستدرت مع روزينا ، وانفقنا بقية النهار فى تنظيف جدران وارض المخزن حتى يمكننا النوم فى شىء من الراحة . حتى اذا قبل الليل وتوقفت لويزا عن العمل على المنسج ، القيت بنفسى على الفراش الخشن المحشو بأوراق نبات الذرة الجافة ، وكذلك فعلت روزينا ، ثم اذا هى تقول بصوت فيه رنة البكاء
- ماذا عسانا نعمل يا أماه .. ماذا عسانا نفعل ؟ .

فأخذت أطمئنها واهدىء من روعها واؤكد لها أن الاقامة لن تطول غير ايام معدودة .. ولو انى عرفت الغيب فى تلك اللحظة ، لادركت انها سوف تطول شهورا كثيرة .

وبعد ساعتين أو نحو ذلك ، ارسل باريد احد ابنائه يدعونا الى طعام العشاء ، وبرغم انى لم اكن جائعة تماما ، الا اننى آثرت عدم النوم بلا طعام ، فذهبنا الى « العش » الذى اضاءه باريد بسراج زيتى ، وهناك رأيناه جالسا بين زوجته وابنائه الأربعة ، واختين وابنائهما الستة وكانتا زوجتين لجنديين يحاربان فى روسيا .

وقال لنا باريد ونحن نجلس معهم :

ـ يمكنكما أن تتناولا الطعام معنا حتى تصل مواد تموينكما .. وسوف يضاف ثمن الطعام الى قائمة الحساب طبعا .

وكانت وجبة العشاء لا تزيد على خبز مفتت فى حساء به كمية من اللوبيا المسلوقة مع قطع صغيرة من اللحم .

ولما عدنا الى المخزن للنوم ، أمسكت روزينا بذراعى ، وجعلتنى اركع بجانبها للصلاة شكرا لنجاتنا من أهوال الحرب ، اذ هيىء لنا هذا المكان الآمن نقضى فيه أيامنا حتى نعود بسلامة الى روما .. الى مسكننا الجميل ، والى متجرنا الذى نرتزق منه . واحسست وأنا راكعة بجانب روزينا ، أننى راكعة بجانب قديسة او ملاك طاهر . والواقع انها كانت بتصرفاتها وسلوكها وبراءة أحاديثها أقرب الى الملاك منها الى البشر . ولا عجب فى هذا ، فقد عاشت حياتها معى ، حتى تلك اللحظة ، لم ترتكب اثما ، ولم تقترف ذنبا ، ولم تعرف للخطيئة وجها ، ولم تعركها الحياة بادرانها ومفاسدها ولعل هذا الحرمان العنيف من تجارب الحياة هو السبب الأساسى فى ذلك التغيير الهائل الذى طرأ عليها .

وقضينا ليلتنا الأولى فى ذلك المخزن .. ولولا التعب الشديد الذى كنا نشعر به ، ما استطعنا ان نستغرق فى النوم على تلك الحشية الخشنة .. ولكننى كنت بين الحين والآخر استيقظ على أزيز طائرة عابرة ، فأتذكر الحرب .. ثم اتذكر أن الحلفاء سوف يهبطون فى القريب العاجل ليحررونا من الألمان والفاشيست ، ويعيدونا الى بيوتنا سالمين .

***

وهكذا بدأت اقامتنا فى تلك القرية الجبلية المسماة سانت إيقيما . واخذت الأيام تمر بطيئة متشابهة .. ننهض فى ساعة متأخرة من الصباح لنغتسل ثم نعد طعام الظهيرة ونأكله فى نحو الحادية عشرة صباحا ، ونجول فى انحاء المنطقة ، أو نجلس أو نتبادل الأحاديث مع هذا أو ذاك من اللاجئين ، ثم نتناول طعام

العشاء في نحو السادسة مساء ، وفي التاسعة أو العاشرة نأوي الى فراشنا الخشن لننام .

وبعد أسبوع وصل تومازينو لاهث الأنفاس ممسكا بمقود حماره ، يقول لنا :

ـ هاندا قد جئتكما بمؤونة تكفيكما ستة أشهر على الأقل .

ثم اخذ يسلمنا الاكياس والغرائر وهو ينظر في القائمةالمكتوبة، واني لاذكر هذه القائمة الآن لأبين كيف كنا نعيش في خريف عام ١٩٤٣ ، ثم الشهور الستة الاولى من العام التالى .

لقد كان علينا ـ روزينا وأنا ـ أن نعيش تسعة اشهر علىهذه الكميات من الأطعمة :

٥٠ كيلو دقيق للخبز والحلوى و ٢٠ كيلو من البقـــول من أسوأ الأنواع . وبضعة « كيلوات » من البازلاء الجافة ،و«كيلوين» من الزيت ، ومثلهما من السجق ، ٥٠ كيلو من البرتقال ، وغرارة من التين واللوز والجوز وكمية كبيرة من الخروب الذى كان طعاما للجياد الا أن ضروريات الحرب جعلت منه طعاما للبشر .

ووضعنا هذه المؤن في المخزن ، بعضها تحت السرير ،وبعضها في ركن منه ، ولم نكن نخشى أن تمتد يد بالسرقة الى شيء منـه ، لأن العرف جرى الا يسرق لاجيء من لاجيء أو مضيف من ضيف. ولكننى صدمت بقسوة حين أخبرني تومازينو أن أسـعار المأكولات زادت في اسبوع واحد بنسبة ثلاثين في المائة .. ومن المنتظر أن تتضاعف هذه الزيادة اسبوعا بعد أسبوع .

وهكذا أخذت ادفع ثمن ما جنيت من ارباح في اثناء تجارتي في الأقوات عند اشتداد ازمات التموين في روما .

وقد تعلمت خلال هذا الأسبوع درسا من دروس الحيـــاة . فعندما تاخر وصول تومازينو بحاجاتنا من المـــؤن ، بدأ الجميع يتجنبوننا ، ويتجهمون في وجوهنا ، ويأكلون بعيدا عنا وراح باريدا يقدم لنا أسوأ ما لديه بأعلى سعر ممكن. .حتى اذا وصل تومازينو بالمؤن ، انبسطت الوجوه وانفرجت الشفاه عن الابتسامات ، وكثرت

دعواتنا الى الطعام ، وتحولنا في لحظات من امرأتين منبوذتين ، الى سيدتين جديرتين بكل تقدير واحترام .. وكان فيليبو اكثر الجميع ابتهاجا بوصول المؤن الينا ، لأنه كان يخشى دائما - بحكم زمالتنا في ميدان التجارة - ان يضطر الى اعالتنا مما لديه من مؤن كثيرة .

ومضت أيام كثيرة وانباء الحرب تأتي الينا غامضة متضاربة . كان الذين يأتون الينا من الوادي يقولون ان الحلفاء هبطوا على شواطيء ايطاليا وبدءوا الزحف الى روما .. ولكننا اخذنا نرتاب في هذه الأنباء حين توالت الأيام دون ان نرى أثرا لهؤلاء الحلفاء فلو انهم كانوا يزحفون سيرا على الأقدام ، وفي بطء السلاحف ، لأمكنهم أن يصلوا الينا في خلال اسبوعين أو ثلاثة .. ولكننا لم نر أحدا منهم ، أو من الألمان ، وكل ما كنا نسمعه هو قصف المدافع من بعيد ، وأزيز الطائرات التي تعبر السماء فوقنا في جولات استكشافية .

ومع مرور الأيام بدأنا نألف صحبة الشاب المثقف ميشيل ابن فيليبو . وكان شابا غريب الأطوار .. ولكنني اخذت احبه كما لو كان ابني . واحب هنا أن اسهب في وصفه حتى اقدم عنه صورة واضحة . كان قصير القامة ، عريض الكتفين ، كبير الرأس ، عالي الجبين ، يضع على عينيه نظارة طبية ، ويسير منتصبا في كبرياء واعتداد بالنفس . أو في سمت الانسان الذي يأبى ان يحني رأسه لأحد . وكان موفور الثقافة في نحو الخامسة والعشرين من العمر . وكان يختلف أشد الاختلاف عن جميع اللاجئين أو جميع الذين عرفتهم حتى ذلك اليوم .. وكانت له آراؤه الخاصة في حكم الفاشستيين والنازيين ، ومن ثم رفض الاشتراك في حربهما ضد الحلفاء لأنه كان يؤمن في قرارة نفسه انها حرب عدوانية ليس لها من هدف الا اخضاع الشعوب ، ووضع نير العبودية في رقاب الغير ، ومن ثم انتهز أول فرصة ، وهرب من الجيش ، ولاذ مع أسرته الى هذه القرية الجبلية .

وقد اعتاد ميشيل ان يقضي معظم ساعات النهار في صحبتنا .

ولست ادرى ماذا كان يجذبه الينا . ذلك اننا لم نكن غير امرأتين لاجئتين لا نكاد نختلف كثيرا عن امه واخته. كما انه لم يكن مفتونا، بأى حال من الأحوال ، بجمال روزينا . بل لقد عبر عن رايه ذات يوم في الجمال ، فقال انه يكره كل شيء جميل ، لأن الجمال في رايه فتنة .

ولعل الذى كان يجذبه الينا هو اننا من روما ، ولا نتحدث اللهجات الريفية الجبلية التى كان يضيق بسماعها بحكم ثقافته.

وكنا نمضى معا ساعات النهار نتبادل الأحاديث والآراء عن كل شيء ، وكنا خلال هذه الأحاديث نجول فى الدروب الجبلية حتى اذا وجدنا خميلة من اشجار الخروب ، جلسنا تحتها وكثرا ما كنا نأخذ معنا طعامنا لنأكله تحت هذه الخمائل .. حتى اذا آذنت الشمس بالمغيب ، عدنا ادراجنا متعبين مستعدين للاستغراق فى النوم .

وكان طبيعيا أن نفضل — روزينا وأنا — صحبته على صحبة غيره من الرجال الذين كانوا معنا فى تلك القرية . ذلك أن أفكار هؤلاء الرجال واحاديثهم لم تكن تتجاوز نطاق اهتمامهم الشخصى ووسائل جمع المال . وكان الانصات اليهم مدة طويلة مثيرا فى النفس الشعور بالنفور والاكتئاب . كان فيليبو وغيره من اللاجئين لا يكفون عن الحديث عن كيفية جمع المال ، وعن الصفقات الرابحة، وعن الاشياء المختلفة التى تباع وتشترى،وعن الأسعار قبل الحرب وفى أثنائها وما ينتظر ان تصل اليه بعد الحرب . فاذا كفوا عن هذه الأحاديث ، لعبوا الورق فى كوخ فيليبو . وكان ميشيل يقول عنهم انهم يتحدثون كما تتحدث الحيوانات ، لو كان فى مقدور الحيوانات الحديث .

وكان بين اللاجئين الذين اعتادوا لعب الورق مع فيليبو رجل يدعى سيفرينو وكان قبل هربه من مدينة فوندى يشتغل ترزيا وتاجر أقمشة . وكان كثيرا ما يسرف فى الحديث زهوا عن « شطارته »،وعن براعته فى جمع أكبر كمية من الأقمشة واخفائها فى مخبأ سرى بمنزله . وكان يحلو له أن يحدث زملاءه عن الثروة

التى سوف يجنيها بعد انتهاء الحرب . وكان لابد للحرب أن تنتهى يوما .. وكان قد قدر « بشطارته » انه فى الفترة التى تمتد بين انتهاء الحرب وعودة الانتاج المدنى الى ما كان عليه ، سوف يبيع أقمشته المخبوءة بالأسعار التى يفرضها ..

وفى ذات صباح ، أقبل من الوادى شاب كان مساعدا لسيفرينو .. أقبل لاهث الأنفاس يعلن لسيفرينو أن جماعة الفاشيست العسكريين فى الوادى قد كشفوا مخبأ الاقمشة واستولوا عليها .

وراح سيفرينو يصيح ويولول ويلطم وجهه ويشد شعره وزملاؤه حوله يحاولون التخفيف عنه .. فلما هدأ بعض الشىء ، تناول عصاه التى كان قد صنعها من غصن شجرة ، وهبط الوادى قائلا انه لن يستريح حتى يسترد ثروته المسروقة .

وظلت زوجته وأبناؤه يبكون حتى عاد اليهم فى اليوم التالى يجر قدميه مهلهل الشياب محزون النفس . واستمربضعة أيام وهو يهبط الوادى ويعود خالى الوفاض ، ولكن نظراته كانت تنم عن الاصرار .

وفى ذات يوم ، اقبل ومعه أحد الجنود الالمان ، ومن الحرس الحربى ، قدمه الينا باسم هانز . وتحلقنا حول الجندى الألمانى نتأمله .. وكان شابا أشقر صغير الجسم ، عريض الردفين كالمرأة ، على وجهه آثار جروح غائرة قال عنها انها من مخلفات المعارك فى روسيا . وكانت عيناه زرقاوين باهتتين غير معبرتين وكأنهما مصنوعتان من الزجاج .

وقال سيفرينو ، مزهوا ، أنه التقى بهانز وعرف منه انه كان « ترزيا » فى برلين قبل الحرب ومن ثم انعقدت بينهما أواصر الصداقة بسبب هذه الزمالة فى المهنة الواحدة . ولما علم هانز بمأساة سيفرينو ، وعده بتقديم كل مساعدة ممكنة لاسترداد أقمشته . ومن ثم دعاه سيفرينو الى كوخه فى سانت ايفيما ليتناول معه الطعام ، ويقدمه الى بقية اللاجئين .

وقال هانز ان الحرب سوف تنتهى قريبا بانتصار الألمان ، وأن هذا الانتصار أصبح مؤكدا بعد نجاح العلماء الألمان فى اختـــراع الأسلحة السرية التى سوف يستخدمها هتلر للقضاءعلى كل مقاومة للحلفاء فى جميع الجبهات .

وبلغ قوة تأثيره على الجميع أن دعاه فيليبـــو الى مائدته مع سيفرينو وعدد من اللاجئين . واستمر هانز فى أثناء الطعـــام يتحدث عن قوة الجيش الألمانى وعن عظمة المانيا ، وعن حياته مع زوجته وابنته فى برلين ، ولما قال فى معرض الحديث أن الجيش الألمانى سيقوم قريبا بهجوم شامل لالقاء الانجليز فى البحر ، قال له فيليبو منافقا لارضائه :

ـ نعم .. نعم .. سوف نلقى بهم جميعا الى البحر . بهؤلاء السفاحين .

فرد عليه هانز الألمانى قائلا :

ـ لا .. انهم ليسوا سفاحين .. انهم جنود شجعان .

فقال فيليبو ارضاء له :

ـ طبعا .. طبعا .. انهم جنود شجعان .. اننا نعرف هـذا جيدا .

فرد هانز قائلا :

ـ لا .. ان الذى يقول عن الانجليز انهم شجعان يعتبر خائنـا ويستحق الموت بالرصاص .

وغص فيليبو بريقه ولم يعد يدرى كيف يرضى هذا الألمـانى العجيب ، ثم قال فى النهاية بحذر :

ـ الم اقل من قبل انهم سفاحون ؟.

ـ انهم ليسوا سفاحين ، بل جنود شجعان ..

ورأى فيليبو أن يلوذ بالصمت .. وعندئذ قال هانز :

ـ انهم يحاربون . ونحن نحارب .. اما أنتم أيها الايطاليون ؟ فانكم تختبئون هنا كالجرذان .. تختبئون هنا وتتركوننا نحارب من اجلكم فى الجبهات الأمامية ..

ثم وضع يده على مقبض مسدسه وقال بعنف مشيرا الى كل رجل :

ـ لماذا لا تقاتل من أجل بلادك .. لماذا تهرب وتتركنا نقاتل من اجلك ، وانت يا سيفرينو .. لماذا لا تكون فى الجبهة الأمامية الآن ..

وتراجع الرجال قليلا فى خوف وكأنهم وجدوا أنفسهم فجأة أمام حية سامة بعد أن حسبوها حية أليفة غير ضارة .. وشحب وجه سيفرينو بشدة وقد أدرك مدى خطئه فى احضار هذا الألمانى الى القرية ، ولكنه تمالك نفسه وقال :

ـ اننى مريض بصدرى .. وقد سرحتنى الادارة الطبية فى الجيش .

وفجأة انفجر الجندى الألمانى ضاحكا وقال :

ـ حسنا .. حسنا .. اننا أصدقاء .. أليس كذلك ؟ انت « ترزى » .. وأنا « ترزى » .. ونحن زملاء فى مهنة واحدة .. ومن واجب الزميل أن يساعد زميله فى المحنة . لسوف أسترد لك أقمشتك لتصبح موفور الثراء ، وسأمضى انا الى الجبهة لأموت من اجلك ..

ولم يدر سيفرينو ماذا يقول لهذا الانسان الذى يكشر حينا عن أنيابه فيلوح كالوحش الكاسر ويبتسم حينا ؟ فيبدو كانسان وادع .

ولكن مخاوفه بدأت تزول تدريجا ، وقد نم وجهه عن شعور الانسان الذى يدرك انه وحش ماثل أمامه لن يمضه مهما حدث .

ولما ملأ الألمانى بطنه بالطعام والشراب ، بحيث اضطر الى فك حزامه المريض ، نهض وقال وهو يضع يده على كتف سيفرينو :

ـ والآن هلم نمض .. وبعد قليل سوف تعود ومعــــك كل الأقمشة المسروقة .

ثم رفع يده بالتحية العسكرية ، وضرب كعبى حذائه بعضهما ببعض ، ثم سار مع سيفرينو هابطا الى الوادى .

وقال فيليبو وهو يشيعهما بنظراته :

ـ لو كنت فى مكان سيفرينو ، ما وثقت بهذا الألمانى كل هـذه الثقة .

***

وانتظرنا عودة سيفرينو طوال ذلك اليوم ، وجزءا كبيــرا من الليل . ولكنه لم يعد فى ذلك اليوم ، ولا فى الأيام التالية . واخيرا قرر فيليبو ـ الذى كان يحب سيفرينو ـ ان يتخــذ الاجراءات للتحرى عن سبب غيابه ، فطلب من فلاح جبلى عجوز يدعى نيقولا أن يذهب ويتقصى أخبار سيفرينو . ولما تردد العجوز نيقولا فى القيام بهذه المهمة ، وعده فيليبو بمبلغ من المال اذا هو استطاع ان يأتى بأنباء مؤكدة عما حدث لسيفرينو .

وانصرف الفلاح العجوز ، وفى اليوم التالى عاد معفرا مغبرا لاهث الأنفاس ، شاحب الوجه وبعد أن استراح وهدأت أنفاسه ، قال انه علم بما حدث لسيفرينو . لقد استطاع هانز الالمانى أن يقتحم بمدفعه الرشاش معسكر الفاشستيين الذين سرقوا أقمشــة سيفرينو وأن يسترد الأقمشة كلها ، وأن يضعها فى سيارة جيب ، ثم ينطلق بها ، مع سيفرينو فى طريق العودة الى الجبال . ولكن الألمانى انحرف بالسيارة الى معسكرات جيشه ، وهناك ســلم سيفرينو الى المندوبين المكلفين بجمع الرجال الايطاليين وارسالهم الى معسكرات العمل لاقامة التحصينات وحفر الخنادق وما الى هذا .

واختتم العجوز نيقولا الحديث قائلا :

ـ لقد فقد سيفرينو أقمشته ، وحريته معا .. ولكن المزعج فى الأمر ان الألمان قرروا أن يقوموا بحملات تفتيشية فى الجبال ـ بعد أن يفرغوا من الوادى ـ للبحث عن الرجال الايطاليين وارسالهم الى معسكرات العمل .

وصمت العجوز .. وتبادلنا جميعا النظرات .. وفجأة قال أحد اللاجئين :

ـ انني افضل ان انتحر على تسليم نفسي لهؤلاء السفاحين .

الفصل الخامس

((الناطر فيابيو))

نسينا حملات الألمان التفتيشية للبحث عن الرجال والشبان القادمين للعمل فى الجبهة الامامية عندما بدأ موسم الامطار فى أوائل شهر نوفمبر واستمر اربعين يوما بلا انقطاع ، الا فى فترات قليلة بين الحين والآخر .

وبرغم أن هذه الأمطار قد جعلتنا أكثر أمنا واستقرارا الا انها اكست حياتنا بالمزيد من الملل والاكتئاب .. اذ كنا نقضي معظم الايام قابعين في اكواخنا ، ناكل وننام .. أو نجلس ونتحدث ، او نبقى صامتين الساعات الطوال ، نعيش مع أفكارنا وذكرياتنا وآمالنا .

وكانت المؤن بطبيعة الحال تتناقص يوما بعد يوم ، وكان الحصول على المزيد منها بأى ثمن يزداد عسرا يوما بعد يوم ، لأن الزارعين بدءوا يدركون ان الأوراق المالية ، مهما بلغت قيمتها ، لاتشبع من جوع فى فترة القحط التى تسبق ظهور المحصولات الجديدة .

وحاول باريد أن يصيد بعض الطيور ببندقيته العتيقة ويبيعها لنا ، ولكن الطيور الجبلية كانت من صغر الحجم بحيث لم يكن المرء يشعر بالشبع الا اذا تناول منها عشرة أو اكثر .. وقد استطاع

ان يصيد بعض الثعالب الجبلية الصغيرة الحمراء ، الا ان مذاقها كان من السوء بحيث عافته نفوسنا وفضل الكثيرون منا الجوع على تناولها .

وكان فيليبو « الشاطر » يعمد بين الحين والآخر الى شراء جدى أو عنز من احد الرعاة الجبليين ، ويستعين بالجزار دانزيو على ذبحها ، ثم يبيع لحمها للاجئين بربح بسيط .

وفى ذات صباح ـ وكان المطر قد توقف قليلا ـ تحلقنا حول دانزيو الجزار وهو يذبح جديا ويسلخه ويقطع لحمه قطعا تزن كل منها كيلو من اللحم أو اكثر قليلا .. وكان هذا الحدث بطبيعة الحال من الأحداث التى نترقبها لنطرد عن نفوسنا بعض الملل .. ونستشعر الأمل فى تذوق بعض اللحم الطازج الذى طال حرماننا منه .

وبينما كانت هذه العملية تجرى أمام عيوننا المترقبة وشفاهنا المتلحظة ، اذا بصوت رجل يهرع الينا صائحا :

ـ فيليبو .. فيليبو ..

فاستدرنا الى مصدر الصوت ، ورأينا رجلا يندفع من « المصطبة » الجبلية الأخيرة لاهث الأنفاس ، وإذا هو ، حين اقترب منا ، فنسنزيو ، مؤجر أرض فيليبو كوتشينا الرجل نفسه الذى اقمنا فى كوخه بضعة ايام قبل فرارنا الى الجبل .

وكان معفرا مغبرا مكسوا بالأوحال اقرب ما يكون الى طائر كبير قبيح الشكل منزوع الريش .. وكان يصيح مضطربا وهو يقترب نحونا :

ـ فيليبو .. فيليبو .. لقد حدث شيء رهيب .. حدث شيء رهيب يا فيليبو .

واندفع فيليبو نحوه مهتاجا وهو يقول :

ـ ماذا حدث يافنسنزيو .. اخبرنى ماذا حدث ؟

ولكن فنسنزيو ـ الماكر ـ تظاهر بالتقاط انفاسه وقال بصوت متقطع :

ـ شيء رهيب جدا يا فيليبو ..

وكنا عندئذ قد تحلقنا حول الرجلين .. وفتحت نافذة كوخ فيليبو وأطلت منها زوجته وابنته وقد ارتسم الخوف على وجهيهما وقال فنسنزيو أخيرا :

ـ لقد جاء الألمان والفاشيست ونقروا الجدران وكشفوا المخبأ السرى الذى تخفى فيه حاجاتك واستولوا عليها كلها .

وصاح فيليبو بفزع :

ـــ هل سرقوا كنوزى ؟

ـ نعم يا فيليبو .. سرقوا كل شيء ولم يتركوا شيئا قط .

ولكن فيليبو لم يقتنع بهذا ، فقال صائحا على حين راحت زوجته وابنته تولولان فى النافذة ..

ـ لا .. انك كاذب يافنسنزيو .. أنت السارق لكنوزى .. أنت الذى طمعت فيها انك لص .. وكذلك زوجتك وابناك ، ان الجميع يعلمون أنكم عصابة من اللصوص لاتتورعوا حتى عن سرقة زميل لكم فى جمعية سان جيونانى .

وكان يصيح ويلوح بيديه كالمجنون .. وفجأة انتزع السكين من يد دانزيو الجزار ، واندفع بها ليغمدها فى صدر فنسنزيو لولا مبادرة هذا الى الفرار نحو « المصاطب » الجبلية .. ولكن كثيرا من اللاجئين اندفعوا وراءه ولحقوا به على حين اجتمع عدد منهم للامساك بفيليبو ومنعه من ارتكاب جريمة قتل فى أثناء ثورته العارمة .

واخذت الزوجة والابنة تصرخان من النافذة قائلتين :

ـ لقد خرب بيتنا .. لقد فقدنا كل شيء .

وراح فيليبو يصيح والزبد يعلو شفتيه !

ـ دعونى اقتل هذا اللص .. دعونى اقض عليه .

كان هذا والمطر الذى بدا يتساقط رذاذه كان ينهمر وابـلا ويفرقنا جميعا .

وفجأة تحرك ميشيل ، الذى كان واقفا بعيدا يبتسم وكأنه بضياع ثروة أبيه ـ الشاطر ـ وتقدم نحو فنسنزيو الذى كان لايكف عن الاحتجاج على اتهامه بالسرقة ، ثم دس يده فى جيب « سترته » وأخرج علبة حلى صغيرة فتحها وتناول منها خاتمـا ماسيا وقال وهو يقربه من وجه فنسنزيو :

ـ نعم .. انت لص .. ولص حقير أيضا يافنسنزيو .. وليس هناك احقر من الانسان الذى يخون الأمانة .. ان هذا خاتم اختى فمن أين لك به ، وقد سرق الألمان والفاشيست كل شىء كمـا تزعم ؟.

وحاول فيليبو ان ينقض مرة أخـرى على فنسنزيو ، ولـكن ميشيل قال له بهدوء :

ـ لو كنت مكانك لذهبت الى المنزل لأستريح .

ـ ولكن لابد لى من قتله .

ـ الأفضل ان تذهب الى المنزل .

ـ بل الأفضل ان أقتله .

ـ هات هذا السكين ، واذهب الى المنزل .

ولشد ما كانت دهشتى ، بل دهشة الجميع ، حين راينا فيليبو يستجيب لابنه فيسلمه السكين ، ثم يتراجع ويدخل كوخه وهو لايكف عن الصـياح والولولة وندب حظه العاثر .

وانتهز اللاجئون هذه الفرصة للتسلية ، فتحلقوا حول فنسنزيو وشرعوا يمطرونه بالأسئلة عن كيفية وقوع الحادث . وراى هو ان الفرصة سانحة ليؤكد براءته فقال :

ـ انني زميله في جمعية سان جيوفاني ، وقد اقسمنا جميعا الا يخون احدنا الآخر . ولكن ماذا كان في وسعي ان افعل أمام كتيبة من الالمان والفاشيست الذين عرفوا أن معظم اللاجئين تركوا أمتعتهم الثمينة في مخابيء سرية بمنازلهم . لتنقض على من السماء صاعقة تخرسني ان كنت كاذبا .

ـ نعم .. نعم يافنسنزيو .. اننا نصدقك ، ولكن كيف سرقت حاجات فيليبو ..

ـ انه هاتف .. هاتف ظل يصرخ في اذني أياما متوالية قائلا لي : خذ معولا وحطم الجدار .. خذ معولا وحطم الجدار .

ـ وهكذا أخذت معولا وحطمت الجدار يافنسنزيو .

ـ نعم ..

وانفجر الجميع ضاحكين .. وبعد برهة اخرى من هذا العبث تركناه وعدنا الى دانزيو الجزار لياخذ كل منا حاجته من اللحم ولم ينصرف فنسنزيو من فوره وانما راح يجول بين اللاجئين ويدخل اكواخهم ويستجدى منهم الطعام والشراب ويردد على مسامعهم حكاية هذا الهاتف الذى طلب منه أن يسرق حاجات فيليبو ، وكلما ردد ها ، استغرق السامعون في الضحك ، فيدهش هو من ضحكهم .. حتى اذا غربت الشمس ، انصرف عائدا الى الوادي مكتئب الوجه منقبض النفس ، وكأنما هو المسروق منه وفيليبو هو السارق .

وفي المساء نفسه ، اقبل ميشيل علينا ونحن جالستان مع باريد وزوجته في المخزن وقال لنا بعد أن جلس :

ـ ان أبى ليس شريرا بطبيعته ، ومع ذلك فقد كاد يقتل رجلا من أجل بضعة أمتعة وكمية قليلة من الذهب . وليس بيننا من يرضى بقتل دجاجة دفاعا عن مبدأ .

فقال باريد وهو ينظر الى النيران المضرمة فى المدفأة !

ـ ميشيل .. الا تعرف ان ممتلكات الانسان اغلى عنده من المبادىء ؟ ولنضرب المثل برجل الدين .. انه سوف يربت على كتفيك ويطلب لك الهداية من الله اذا اعترفت له بأنك سرقت شيئا اما اذا اعترفت له أن هذا الشىء المسروق من ممتلكاته الخاصة فانه فى هذه الحالة سينقض عليك ويسلمك الى رجال الشرطة ولا يهدأ حتى يسترد ما سرقته منه .

ونظر ميشيل الى الزارع الجبلى باريد فى دهشة ، وكأنما هو لايصدق ان فى مقدور هذا الرجل الساذج أن يفحمه بمثل هذا المنطق السليم .

وأخذت الأيام تمضى بطيئة مزعجة .. وبالقرب من نهاية شهر ديسمبر ، استيقظنا ذات صباح ، فاذا الشمس مشرقة .. والسماء صافية ، والجو يوحى بالدفء والانتعاش .. فخرجنا كالسحالى المرتعدة من فرط البرد ـ نستمتع بضوء الشمس .. ونستنشق الهواء الصافى الخالى من البلل والرطوبة ، ونرنو الى الطائرات اللامعة التى استأنفت اغارتها على معسكرات الألمان .

وعادت الآمال تنتعش فى نفوسنا بقرب هبوط الحلفاء على الأراضى الايطالية .. وكانت هذه الآمال تقوى كلما رأينا المزيد من طائرات الحلفاء تعبر السماء فوقنا لتلقى بقنابلها على معسكرات الألمان .. وبرغم أن اللاجئين كانوا يعلمون أن هذه القنابل تدمر بعض بيوتهم فى فوندى ، الا انهم كانوا يعلمون أيضا أن حكومة ما بعد الحرب سوف تعوضهم وتقيم لهم بيوتا اجمل وأحدث طرازا .

ولم يحدث فى هذه الفترة الا حدث آخر ترك اثره فى نفسى .. لقد كنت هابطة ذات صباح مع روزينا الى الوادى لاستبدل بست بيضات من بيض دجاجتى رغيفا من الخبز من معسكرات الألمان .. وكنت قد اعتدت ان أقوم بهذه المبادلة بين الحين والآخر وكان رغيف الخبز الذى استبدله بست بيضات طازجة يزن « كيلوين ونصف كيلو » .

وبينما نحن نهبط الى سفح الجبل ، رأينا تومازينو - شقيق فيليبو - صاعدا بحماره المحمل بالمؤن ، ليتجر بهـا مع اللاجئين وفجأة سمعنا من بعد صفارات الانذار بغارة جوية ، واذا طائرات الحلفاء فوق رؤوسنا ، واذا بالقنابل تتهاوى بالقرب منا .

وانبطحت مع روزينا على وجهينا فى فجوة جبلية قريبة ، وقد فعلنا هذا فى الوقت المنـاسب ، لأنى لم البث أن سمعت دوى انفجار شديد خيل الى معه ان الجبل ينهار فوقنا .. وقد بقينا قابعتين على هذا النحو حتى بعد ان سمعنا صفارات الأمان ... ولما نهضنا أخيرا ، سمعنا انينا صادرا من فجوة قريبة ، فأسرعنا الى مصدر الانين ورأينا تومازينو يرتعد ويتوجع ويهر كالكلب برغم انه لم يصب بسوء .

وساعدناه في الوصول الى كوخه بأعلى الجبل . وكـان قد اتخذ مثلنا من القرية الجبلية ملاذا .. وظل فى ذلك الكوخ أياما لا يأكل ولا يشرب ، وانما يهر ويرتعد ويتمتم بعبارات تنم عن الخوف من قنابل الطائرات .

وبعد اسبوعين .. قضى نحبه ...

الفصـــل الســادس

الفـــدائيان

كانت الأيام العشرة السابقة على عيد الميلاد المجيد ، من اسعد أيام حياتى ، برغم أن طعامنا لم يكن يزيد على الخبز والجبن وبعض الخضر المسلوقة ، وبرغم أن فراشنا لم يكن غير حشية من أوراق الذرة الجافة .. ذلك أن الأنباء قد وردت بأن الحلفاء هبطوا فى جارجليانو ، وانهم يستعدون للزحف الى روما وتطهير البلاد من الجيوش النازية والفاشستية وكان الجو فى هذه الأيام العشرة صحوا ، والشمس مشرقة ، فكنت أمضى مع روزينا وميشيل فى رحلات خلوية بالجبال ، نقضى ساعات النهار سائرين او راقدين فى

الشمس .. نأكل من طعامنا اليسير ، ونشرب من الجداول التى اترعتها مياه المطر .. ونتبادل الحديث عن آمالنا بعد الحرب .

وفى الأيام الأخيرة من شهر ديسمبر - قبل الاحتفال بعيد راس السنة - وصل بعض الانجليز أخيرا .. ولم يكن من وصل من الانجليز طليعة جيش جارجليانو الزاحف ، وانما كانا جنديين انجليزيين هربا الى الجبال ووصلا الى سانت أفيميا فى صباح اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر ، اى فى يوم الاحتفال بعيد الميلاد المجيد .

وكنت اطل من نافذة المخزن فى ذلك الصباح المشرق حين رايت جماعة من اللاجئين يتحلقون حول اثنين من الغرباء بالقرب من حافة « المصطبة » العليا ، فأسرعت بالذهاب الى الحلقة حيث رايت اثنين غريبين وكانا شابين أحدهما اشقر صغير الجسم ازرق العينين له لحية ذهبية مدببة وانف مستقيم وشفتان حمراوان .. والآخر طويل القامة ملوح الوجه، رمادى العينين اسود الشعر وكان الأول يتحدث بالايطالية الركيكة ، ويقول انهما انجليزيان من البحرية الانجليزية ، وانه ضابط بحرى ، والآخر بحار عادى ، وانهما انزلا الى الشاطىء فى منطقة اوسينا بالقرب من روما ليقوما بنسف المنشآت العسكرية ، فلما فرغا من مهمتهما ، وجدا القارب الذى انزلهما قد غادر المنطقة ، ومن ثم راحا يشقان طريقهما خفية الى نابلى .. وقد أمضيا فترة الأمطار فى كوخ زارع ايطالى بالقرب من سيرمونتيا . ولما تحسن الجو ، خرجا من مخبئهما ، وراحا يستأنفان الهرب ، محاولين عبور جبهة القتال للوصول الى نابلى حيث ترسو بعض قطع الأسطول الانجليزى .

وبعد هذا الحديث انهال اللاجئون عليهما بالأسئلة عن سير الحرب ، وعن موعد تحرير ايطاليا ، ولكن الجنديين كانا مثلنا .. لايعرفان شيئا عن سير القتال خلال اختفائهما فى فترة الأمطار ولما عرف اللاجئون هذه الحقيقة ، كما عرفوا انهما فى حاجة الى المساعدة ، انفضوا من حولهما .. الواحد بعد الآخر يقول بعضهم لبعض :

– ان من الخطر البقاء بجوار هذين الانجليزيين فى منطقة يسيطر عليها الجيش الألمانى .

وهكذا ترك الانجليزيان بمفردهما فى النهاية ، راقدين على حافة الساحة فى ضوء الشمس ، مهلهلى الملابس ، زائغى النظرات، لا يعرفان ماذا قد يحدث لهما على أيدى هؤلاء اللاجئين .

واعترف أننى ايضا قد أشعر بالخوف من بقائى بجوارهما، لا على نفسى، وانما على روزينا ولكن روزينا هى التى جعلتنى اخجل من هذا الخوف ، حين قالت :

– اماه .. انهما فى حالة يائسة وليس لديهما مايأكلانه فى هذا اليوم من عيد الميلاد . ولا شك أنهما يتمنيان الآن لو كانا مع اهليهما يحتفلان بهذا العيد فى سلام . فلماذا لاندعوهما ليتناولا معنا طعام الغداء ؟ .

واخجلتنى روزينا بشجاعتها وانسانيتها ، فدعوت الفدائيين الى مائدتى ، وقبلا الدعوة بسرور .

وكنت قد أعددت لهذا اليوم طعاما خاصا ، لأن روزينا منذ طفولتها كانت قد اعتادت الاحتفال بهذا اليوم ، ومن ثم رأيت الا احرمها فى هذا العام بهجة الاحتفال به برغم ظروف الحرب .

وكنت قد اشتريت من باريد دجاجة « حمرتها » مع البطاطس، واعددت فطيرة مشهية ، وقدمت معها شرائح من السجق وعددا من البيض المسلوق . اما الحلوى فقد صنعتها من دقيق الخروب الممزوج باللبن والزبيب والتين والسكر وكنت قد حصلت – بالثمن طبعا – على زجاجة نبيذ من أحد اللاجئين ، وبذلك تكاملت عناصر وجبة الاحتفال بعيد الميلاد .

ولما رايت ميشيل يهرع فى الطريق الى كوخ أبيه ، دعوته ليشاركنا فى الطعام ، فأقبل مسرورا ، وقال بحماس :

– لقد فعلت اليوم شيئا رائعا ياسيزيرا .. ان تقديرى لك قد

تضاعف بسبب دعوتك لهذين الفدائيين الى الطعام فى يوم كهذا .

واطل والده من النافذة وناداه ولكن ميشيل اخبره انه سيتناول طعامه معنا ومع البحارين الانجليزيين، وعندئذ خفض فيليبو صوته وقال لابنه فى توسل :

ـ لا ياميشيل .. انهما هاربان من الجيش .. ولو عرف الالمان انك تناولت الطعام معهما لأعدموك رميا بالرصاص .

ولكن ميشيل اصر على موقفه .

وبعد الفراغ من الطعام ، اشتبك ميشيل مع الانجليزيين فى جدل عنيف حول الحرب وحول الأخطار التى ارتكبها الحلفاء فى خططهم العسكرية ، وحول عالم مابعد الحرب ووجوب تصفية الاستعمار واتاحة الفرصة لتحرير جميع الشعوب المستعبدة . ولما عجز الانجليزيان عن مجاراة ميشيل فى أحاديثه المنطقية ، قالا انهما مجرد جنديين ينفذان الأوامر الصادرة اليهما .. اما غير ذلك ، فلا شأن لهمابه .

وبقى الفدائيان معنا طوال اليوم ، وتطرق الحديث معهما الى موضوعات مختلفة ، غير عسكرية . وقد لاحظت ـ ويالأسف ـ انهما لايكادان يعرفان عن ايطاليا أو عن الشعب الايطالى شيئا على حين كان ميشيل يعرف الكثير عن انجلترا وعن الشعب الانجليزى .

واعجب من هذا ان الضابط البحرى الذى اتم مرحلة الدراسة الجامعية لم يستطع ان يعرف من هو دانتى .. أعظم شعراء ايطاليا .

وقال لى ميشيل هامسا :

ـ ان هذا الجهل هو الذى جعل الجنود الحلفاء يرسلون قنابلهم بلا تحفظ على المدن الايطالية ، لأنهم كانوا يجهلون ما تخربه

من تحف وآثار والوان من الفن الجميل . واختتم حديثه قائلا ..
ان الجهل هو اساس كل البلايا .

وبات الفدائيان تلك الليلة تحت كومة من التين . وفى الصباح الباكر انصرفا بهدوء دون ان يشعر بهما احد . وكنت مع روزينا نشعر بالارهاق الشديد ، فنمنا حتى ساعة متاخرة من الصباح، وبينما نحن مستغرقان فى النوم ، اذا بطرق هائل على الباب جعلنى اقفز من فراشى فى فزع . ولما فتحت الباب رأيت جنديين المانيين يشهران مسدسيهما ويدخلان فى صمت ، الى المخزن ويفتشان بدقة كل ركن فيه .

وبرغم جهومة الجنديين ، فاننى لم أشعر بالخوف منهما ،وانما صحت فيهما قائلة :

ــ ماذا حدث ؟ وماذا تريدان ؟ الا تريان أننا مجرد امراتين تحاولان النوم فى أمان ؟.

وقال احدهما بايطالية ركيكة :

ــ حسنا .. حسنا ..

ثم أشار الى صاحبه وراحا يفتشان المخزن بعنف وقسوة وكانت روزينا تشد الغطاء على جسدها حتى ذقنها ، وتنظر الى الالمانيين فى خوف . ولم يتورع احدهما من أن يرفع الغطاء عنها وكأنما يتوقع ان يرى أحدا من الأعداء مختبئا تحت الغطاء .

وغادرا المخزن ، وفتشا جميع أكواخ اللاجئين وسكان القرية. وأعتقد اننا نجونا بمعجزة فى ذلك اليوم ، لأن الألمانيين كانايقومان بالتفتيش عن البحارين الانجليزيين دون أن يسألا أو يستجوبا أحدا .. ولو انهما فعلا هذا ، لوجدا بين اللاجئين او أهل القرية من تخذله شجاعته ويعترف بكل شيء .

وعندئذ ماذا يكون مصيرنا ، أنا وروزينا ، بعد ان استضفنا الانجليزيين وأخفيناهما ليلة كاملة ؟.

وبرغم نجاتنا ، فقد أدركت أن بين اللاجئين جواسيس علينا. والا فكيف عرف الألمان بوصول البحارين الانجليزيين الى سانت أيفيما بمثل هذه السرعة .

وكان ميشيل خلال هـــذا كله يقف بعيدا ، وكأنه يخشى أن يتدنس اذا اقترب من هذين الألمانيين . ولكن اللاجئين أخـــذوا يتوسلون اليه لكى يسأل الجنديين الألمانيين عن سير الحرب ، وعن النهاية المنتظرة لها . ووافق أخيرا وهو كاره ، وسأل الألمانيين عن هذا كله . فقال له أطولهما قامة :

ـ ان الحرب ستنتهى قريبا بانتصار هتلر . وسوف نشن بعد أيام هجوما مضادا لالقاء الحلفاء الى البحر . وبعد ذلك ســنعرف كيف نؤدب الايطاليين الذين خذلونا فى أدق مرحلة من مراحـــل القتـــال .

وكان الألمانى يتحدث عن الايطاليين بلهجة الانسان الذى يتحدث عن مجموعة من الحشرات أو الطفيليات .

وقال ميشيل وهو يكظم غيظه :

ـ وكيف سيكون تأديبكم لهم ؟.

فقال الألمانى بهدوء :

ـ سنتركهم يموتون جوعا .

ولما سمع اللاجئون هذا الحديث خيم عليهم الصمت، ولم يلبثوا أن تفرقوا فى وجوم واكتئاب .

اما ميشيل ، فقد ودع الألمانيين وعلى شـــفتيه ابتســـامة غامضة .

الفصل السابع

بداية المتـــاعب

في يوم من أيام شهر يناير ، استيقظت مع روزينا على دوي منتظم آت من ناحية البحر وقد بدأ بصوت مكتوم كأن السـماء تلقت صدمة من مكان بعيد . وأعقب هذا الصوت آخر وثالث .. وكان الدوى يزداد وضوحا في كل مرة .

وظل هذا الدوى مستمرا يومين كاملين بلا انقطاع ، وبعد ذلك رأينا ذات صباح - احد الرعاة يقبل علينا مهرعا ومعه نشرة اخبارية مطبوعة عثر عليها بين الأحراش . وكانت مكتوبة باللغة الألمانيـة ليقراها الألمان . وكان ميشيل هو الوحيد بيننا الذى يجيد الألمانية فراح يترجمها لنا قائلا :

- ان الحلفـاء يواصلون الزحف من منطقـة انزيو - القريبة من روما - وأن معركة كبرى تدور رحاها وتشترك فيها القوات البحرية والبرية والطائرات والمدافع البعيدة المدى والدبابات وان الحلفاء يتقدمون نحو روما ، وأنهم اقـتربوا الى حد كبير من فاللبرتى .

واسـتقبل اللاجئون هذه الأنباء بالبهجة وتبـادل التهانى والعناق والقبلات . ولم ينم احدنا في تلك الليلة ، وانما أمضيناها في الحديث عن الآمال المرتقبة بعد انتصار الحلفاء .

ولكن الأيام التالية لم تأت الينا بمزيد من الأنباء . وانما ظـل ذلك الدوى المتصل المكتوم يتردد صداه في الجبال آتيا من ناحيـة تيراسينا ، ولكن الألمان ظلوا ، مع هذا كله ، معسكرين بوادى فوندى دون ان يحاولوا الانسحاب ميلا واحدا .

وبعد ايام أخرى وردت الينا اولى الأنباء الحقيقية الدقيقة ؛ فعرفنا ان الألمان استطاعوا بعد معركة طاحنة ، وقف زحف الحلفاء الذين انشئوا لقواتهم خنادق في مساحة محددة على الشاطىء ؛

وقد أخذ الألمان يرمونهم بقذائف المدافع وكأنهم يتدربون على اصابة الأهداف فيهم ، آملين أن يرغموهم فى الوقت المناسب على طردهم وأعادتهم الى السفن الراسية فى الميناء . ومع هذه الأنباء لم تكن لترى فى قرية سانت ايفيميا غير الوجوه المكتئبة والنظرات التى تنم عن خيبة الآمال. وأخذ اللاجئون يقولون ان الانجليز لا يحسنون الحرب البرية لأنهم اعتادوا الحروب البحرية ، وان الالمان على العكس برعوا فى الحروب البرية لأن حب القتال يجرى فى دمائهم واتخذ ميشيل موقف الصمت حتى لايكتسب غضب اللاجئين .. ولكنه أكد لنا ان من المستحيل على الألمان ان يكسبوا الحرب . ولما سألته ذات يوم عن السبب فى هذا .. قال :

ــ لقد خسر الألمان الحــرب فى الأيام الاولى منها برغم جميع انتصاراتهم الخاطفة .

واخذت الأيام تتوالى ونحن لانسمع الا دوى قصف المـدافع من الجانبين دون أن يتزحزح أحدهما امام الآخر .. وكان هــــذا الجمود الرهيب فى الموقف قد جعل الايام تمضى أشد بطئا مما كانت من قبل .. بل لقد أخذنا فى القرية الجبلية نحصى الأيام بالساعات والدقائق من فرط شعورنا بالملل .

وكان الشيء الذى ضاعف من هذا الاحساس هو اســتمرار اللاجئين فى الحديث عن أزمة الطعام حتى أصبح هذا الموضوع لوثة أصابت العقول والنفوس . وكانت المؤن المدخرة قد بلغت من القلة بحيث لم يعد فى مقدور أحد أن يتناول الا وجبة واحدة فى اليوم وأن يمتنع اطلاقا عن دعوة أحد ، أيا كان ــ الى مائدته .. بل لقــد أخذ الجميع يتبارون فى الشكوى من قلة ما لديهم ، وكان اكثر الجميع شكاية ــ بعد أن كان أكثرهم زهوا ــ هو «الشاطر» ــ فيليبو الذى راح يردد كل يوم أنه لم يعد لديه مايكفى اسرته اســبوعا برغم ادراكنا انه أوفرنا ذخيرة .

ومما زاد الحالة سوءا أن القرويين أدركوا فى النهاية ان الطعام أثمن من كل مال ، فأخذوا يحرصون على ما لديهم من محصولات قليلة .. وقد بلغ من حرصهم انهم راحوا يبيعون قطعة الجبن الجافة التى لاتزيد وزنها على ربع كيلو بمائة ليرة .. هذا اذا استطعت أن تغرى أحدهم ببيعها .

وكان لهؤلاء القرويين من سكان الجبال عذرهم ، لأنهم كانوا - حتى فى أيام السلام - يعانون شظف الحياة فى الشهور الأربعة السابقة على ظهور المحصولات المختلفة فى شهرى ابريل ومايو .

وكانت وجبتنا الوحيدة فى اليوم تتكون عادة من بضع حبات من اللوبيا المسلوقة وقطعة من طماطم وشريحة من لحم المعز المقدد وبعض التين الجاف وكنا فى الصباح نتبلغ بقليل من الخروب أو قطعة بصل مع قطعة من الخبز القديد . وكان هذا كله يهون بجانب المشقة التى عانيناها من قلة الملح . ذلك ان الملح كان من عناصر الطعام النادرة . وكان حرماننا منه يجعل مهمة ابتلاع الطعام عسيرة منفرة ، بل كثيرا ماكنا نشعر بالغثيان فى أثناء تناولنا هذا الطعام المائع .. ولولا استعانتنا ببعض الجبن الجاف بين الحين والآخر ما استطعنا احتمال هذه الحياة القاسية .

وفى أوائل شهر مارس أخذت بوادر الربيع تتسلل الى المنطقة حولنا ، واذا نحن ذات صباح نرى فى غلالة السحب أولى زهرات اللوز البيضاء المرتعدة وكأنها مواليد ظهرت فى الحياة ضعيفة واهنة وكان هذا المنظر من المناظر التى ملأت قلوبنا ، نحن اللاجئين املا ذلك أن مقدم الربيع معناه انتهاء موسم الأمطار ، وجفاف الطرق وقدرة الحلفاء على مواصلة الزحف الى روما .

ولكن مشكلة ظلت قائمة .. بل كانت تزداد سوءا يوما بعد يوم .

ولفرط حرصنا على القليل المتبقى لدينا ، عمدنا الى التقاط نبات الشيكوريا الذى كان ينبت فى تلك المناطق صيفيا .. فكنا

تخرج فى الصباح نلتقطه من الارض ، ثم نعود بعد الظهر لنسلقه ونأكله مع قليل من الأطعمة الأخرى .

وكانت تلك اشق مرحلة فى حياتنا ، لأن ملء حجر من الشيكوريا كان لايكاد يكفى الفرد وجبة واحدة .. بل لقد اخذت كميات هذا النباتات تعدم تدريجا لفرط اقبالنا على اقتطافها، ومن ثم ازدادت عملية البحث عنه مشقة .. فكنا نسير مسافات طويلة لالتقاطه وكان منظر اللاجئين يثير الأسى فى النفس وهم يسيرون فى جنبات الجبل ، يحنون القامات وينزعون أعواد الشيكوريا بين الحين والآخر ، وكأنهم يبحثون عن اشياء ضائعة .

وكان من تأثير هذه الشيكوريا فى حياتى خلال هذه المرحلة انى كنت اذا القيت بنفسى متعبة لانام ، أبقى ساهرة مسهدة ساعات طويلة أتصور خلالها حقولا بعد حقول من الشيكوريا ، وأفواجا بعد افواج من اللاجئين يجمعونها ويحزمونها ويتسابقون فى التهامها ، وأظل على هذه الحال حتى يغلبنى النوم على أمرى ، فاغرق فى بحار من الشيكوريا .

وكلما ازداد احساسنا بازمة الطعام، ازداد اللاجئون حديثا عنه وكان فيليبو يجلس بينهم ويسرف فى الحديث عن رفاهية ما قبل الحرب ، عندما كان الأصدقاء يدخلون المطاعم فى نابلى ،ويجلسون الى موائد الطعام والشراب ساعات طوالا .. وفى ذات يوم قال

ـ اتعرفون يااخوانى ماذا أشتهى الآن ؟ اننى اشتهى الحصول على خنزير سمين أشويه على نار هادئة ثم التهمه عن آخره .

وعندئذ قال ميشيل الذى طالما ضاق بأحاديث ابيه :

ـ انك فى هذه الحالة تكون كالهمج الذين ياكل بعضهم لحم بعض .

فرفع فيليبو وجهه مذهولا وقال :

ـ ماذا تعنى .. ؟

ـ اعنى أن الوضع فى هذه الحالة هو خنزير يأكل خنزيرا .

واستاء فيليبو من تهكم ابنه عليه ، فقال بصوت غاضب ؟

ـ انك لاتحترم والديك .

ـ انني لا أحترمها فحسب ، وانما انا خجلان منهما .

وازداد استياء فيلبيو ، ولكنه قال بهدوء :

ـ لو لم يكن لك والد يشقى لينفق عليك ، ما استطعت أن تتعلم وتتثقف وتعتنق مثل هذه الآراء . ويبدو انني المخطيء .

وصمت ميشيل برهة ، ثم قال فى اسف :

ـ انك على حق .. وقد اخطأت فى الانصات الى احاديثك، وسوف احرص فيما بعد علىالابتعاد عن مجالستك ،وعندئذ يمكنك أن تتحدث كما تشاء عن الأطعمة التى تتمنى ان تأكلها .

وتأثر الوالد قليلا ، وأراد أن يرضى ابنه ، فقال :

ـ نعم .. نعم .. لا يحسن الاسراف فى الحديث عن الطعام لنبحث لنا عن موضوع آخر نتحدث عنه .

وهنا استشاط ميشيل غضبا وصاح قائلا :

ـ انكم ستتحدثون طبعا عن قرب وصول الحلفاء ، وعن ألوان الطعام والشراب التى سيمطرونكم بها .. وعن التجارة بعد الحرب وعن المستأجرين الذين يسرقون أموال المؤجرين .. هل لديكم موضوعات أخرى للحديث غير هذه ؟.

واستدار ومضى بعيدا الى حافة الساحة .

وهز فيلبيو كتفيه وقال :

ـ مسكين ابنى ميشيل .. انه شاب غريب الأطوار .

وقال بعض اللاجئين يواسونه :

ـ لا تندم يا فيليبو ، لقد انفقت على تعليمه المال الكثير حتى اصبح شابا له مبادؤه وآراؤه الحكيمة .

وفى ذلك اليوم نفسه ، قال لى ميشيل بصـــوت يقطر بالندم :

ـ ان أبى على حق .. اننى شاب عاق لاأعرف كيف احتـرم والدى . ولكننى افقد زمام اعصـــابى كلما سمعته يتحدث عـن الطعــام .

ـ وما الذى يضيرك من الحديث عن الطعام ؟.

ـ اذا كنت تعلمين انك ستموتين غدا ، فهل يهمـك كثيرا أن تتحدثى عن الطعام ؟.

ـ لا ..

ـ هكذا هو حالنا فى هذه الدنيا . لماذا نركز أفكارنا فى الطعام ونحن سنموت حتما ، ان لم يكن غدا فبعد غد .

ولم استطع أن افهم ماذا يقصـــد على وجـه التحديد .. فقلت :

ـ اذن عن اى شىء تتحدث ؟.

ـ لنتحدث مثلا عن الاسباب التى أدت بنا الى هذه الحالة .

ـ وماهى هذه الأسباب ؟.

فضحك وقال :

ـ ان على كل انسان ان يهتدى اليها هو نفسه بظروفه .

ـ حسنا جدا .. ولكن اباك يتحدث عن الطعام ، لاننا نعانى أزمة فيه ولأن حياتنا تتوقف عليه .

فهز راسه وقال :

ـ ان أبى لايشبع من الحديث عن الطعام حتى فى الأوقات التى يكون فيها الطعام موفورا لديه .. هذه هى المشكلة .

* * *

ومع مرور الأيام فى شهر مارس ، وامتداد ساعات النهار تدريجا ، ظلت المدافع تدوى من منطقة انزيو ، ويرد عليها الألمان من منطقة كاسينو . وكنا فى منتصف الطريق بين المنطقتين تقريبا . وهكذا كنا نسمع قصف المدافع ليلا ونهارا ، وكأن الجانبين فى مباراة حامية ليس لها نهاية .. يوم ، يوم ، يوم .. تنطلق مدافع انزيو .. ثم يوم ، يوم ، يوم .. ترد عليها مدافع كاسينو ، وكانت السماء فوقنا كأنها الطبلة تقرعها القذائف بلا انقطاع أو كأن هدير الحرب غدا جزءا لايتجزأ من الطبيعة الباسمة حولنا .

ومع استمرار هذا الدوى ، أصبحنا نألفه كما ألفنا الجوع والخطر والثياب المهلهلة والنوم على حشايا من أوراق الذرة الجافة وتناول الطعام داخل « عش » مختنق بالدخان . نعم لقد ألفنا هذا الدوى بحيث لو انه توقف يوما افتقدناه مدهوشين . وهذا ما حدث ذات صباح مشرق . فقد توقف هذا الدوى فجأة .. ودهشنا وانا اعنى بهذا أن الانسان يعتاد كل شيء حتى الحرب . وأن مايغيرنا ليس فى الواقع هذه الاحداث العابرة التى تقع فى حياتنا بين الحين والآخر ، وانما هو اعتيادنا شيئا معينا واستسلامنا له دون محاولة التمرد عليه .

والآن ، فى أوائل شهر ابريل ، كانت الجبال من المناظر التى تبتهج لها العين .. كانت مكسوة بالخضرة والأزهار ، وكان الهواء صافيا رقيقا والشمس ساطعة بحيث غدا فى مقدورنا أن نقضى معظم ساعات النهار فى الخلاء .

ولكن كان وراء تلك الزهور التى تبهج العيون مظهر ملأ قلوب اللاجئين حسرة واسى ، لأن ظهور الأزهار فى أطراف النبات كان يعنى ان هذا النبات قد شاخ ولم يعد يصلح للطعام .. وهذا على الاقل ، ما حدث لنبات الشيكوريا الذى لم يعد صالحا للاكل بعد ان ازدهر .

وادركنا اننا لن ننجو من الموت جوعا الا بمعجزة .. اى بوصول جيوش الحلفاء الينا فى الوقت المناسب .

وكانت الأشجار أيضا مزدهرة .. أشجار الخوخ واللوزوالتفاح والكمثرى . كانت بازهارها تكسو الجبال باللونين الأخضر والابيض ولكننا كنا نعلم ان هذه الأزهار هى مجرد تمهيد لظهور الثمار التى كان علينا ان ننتظرها شهورا كثيرة . وكذلك القمح الذى لم يكن فى الحقول غير أعواد خضراء تحتاج الى أشهر حتى تثمر ويصلح ثمارها للطعام .

واذكر ذات صباح اننى – وروزينا وميشيل – راينا احد الأسرى الروسيين فى معسكر الألمان ، يجلس فى حقل للقمح ، تاركا الجياد ترعى أعواده الخضراء اللينة ، وكأنه لا يعرف أن كل عود من هذه الأعواد التى تأكلها الجياد قد تتوقف عليه حياة أحد اللاجئين فى الجبال .

وحاول ميشيل ، حين ادرك مانعانيه من قلة الطعام ، أن يساعدنا بقدر الامكان فكان يأتى الينا بجانب من فطوره أو عشائه ، ولما علم ذات يوم انه لم يبق لدينا من الخبز ما يزن نصف كيلو .. قال انه سوف يزودنا بحاجتنا من الخبز حتى تنفرج الأزمة . وهكذا راح يسرق من والديه الخبز بين الحين والآخر وحدث ذات يوم عندما كانت أمه واخته مشغولتين بخبز كمية من الدقيق أن سرق أربعة أرغفة وقد فاته أن أمه قد أحصت عددها .. فلما تبينت النقص فى العدد ، أخذت تتهم اللاجئين بالسرقة ، وكادت تحدث بينها وبين احدى النساء مشادة عنيفة .

واعترف أننا – روزينا وأنا – كنا نأكل الخبز المسروق من فيليبو بشهوة لاتخلو من الاحساس بالندم .. ولكن كان له – ويا للعجب الشديد – مذاق اشهى من مذاق خبزنا . وقد حرص ميشيل بعد ذلك على تزويدنا بشرائح صغيرة من الخبز حتى لا يفطن والداه الى النقص فى العدد .

وانصرم شهر ابريل بأزهاره وبالجوع الذى لم يفارقنا لحظة . وجاء شهر مايو محملا بالحرارة وبالذباب والزنابير التى زادتنا – مع الجوع واليأس – عذابا فوق عذاب ، ذلك اننا كنا نقضى معظم

ساعات النهار فى طرد الذباب ولكنه كان يحتشد فى الليل ويكسو الجدران والحبال التى نعلق فيها حاجاتنا .

وكانت الزنابير تصنع أوكارها فى سقف المخزن وتتطاير حولنا أسرابا والويل لمن يحاول أن يهاجمها .. وكان العرق يتفصد من أجسامنا معظم ساعات النهار بسبب الحرارة من جهة ، ولفرط هزالنا من جهة أخرى . ولما كانت مياه البئر قد تناقصت فقد أصبحنا نستعملها للشرب وحسب . وهكذا حرمنا حتى نعمة الاغتسال ، وأصبحنا أقرب الى المتسولين منا الى أى شىء آخر.

واذكر أن روزينا قالت لى ذات يوم :

ــ انك تتحدثين دائما عن الطعام يا أماه ، ولكننى على استعداد لأن أتحمل الجوع سنة أخرى مقابل الحياة فى مسكن نظيف وارتداء ملابس نظيفة .

وفى خلال شهر مايو بلغ اليأس باللاجئين حدا جعلهم يجتمعون فى كوخ فيليبو ويقررون القيام بهجوم عام مسلح على الفلاحين ليرغموهم على بيع بعض ما لديهم من أطعمة . ولكن ميشيل الذى حضر ذلك الاجتماع اعترض على هذا القرار ، وقال :

ــ لو انكم فعلتم هذا ، فسوف أقف فى جانب الفلاحين مدافعا عنهم .

فصاح أحد اللاجئين قائلا :

ــ اذن سنعاملك فى هذه الحالة كواحد منهم .. لا كواحد منا .

ولكن اللاجئين لم ينفذوا قرارهم ، لأنهم كانوا مسالمين بطبيعتهم وبحكم نشأتهم وقد ذكرت هذه الحادثة لأبين المدى الذى وصلت اليه حالتنا فى تلك الفترة .

وفى ذات يوم ــ وكان كأى يوم آخر ــ وردت الأنباء بأن الحلفاء

قاموا بهجوم حاسم وانهم يزحفون بسرعة نحونا .. ولن أستطيع أن أصف ابتهاجنا بهذه الأنباء .. لقد أخذنا نرقص ونتعانق ونتبادل القبلات والتهانى .. وكل منا يؤمن بأن وصول الحلفاء الينا معناه النهاية الحاسمة لمتاعبنا ، ولم يخطر ببالنا لحظة أنه سيكون البداية للمتاعب .

الفصل الثامن

العودة الى فوندى

ولت بهجتنا تماما خلال الأيام القليلة التالية على تلك الأنباء ، ذلك أن قنابل الحلفاء الزاحفين ، وقنابل الألمان المنسحبين بدات تعرف طريقها الينا فى قمة الجبل ومن ثم كنا نلوذ ليلا ونهارا بالمغارات الجبلية ، ولا نخرج ــ كالجرذان ــ الا حين يتوقف قصف المدافع قليلا .

واخيرا بدأت القذائف التى تصل الينا تقل تدريجا ، حتى انقطعت ذات يوم تماما ، فأدركنا ان ميدان المعركة تحرك بعيدا عنا بعض الشيء .

وفى ذات يوم ، وكنا نتناول طعامنا فى الواحدة بعد الظهر ، اذا أحد أبناء باريد يهرع الينا من سفح الجبل خائفا مذعورا ويقول ان الألمان وصلوا . ولم نفهم ماذا كان يقصد بقوله « الألمان » لأننا كنا نتوقع وصول الحلفاء ، ومن ثم ظننا انه أخطأ ، فقلنا له :

ــ انك تقصد الانجليز طبعا .

ــ لا .. بل الألمان .

ــ ولكن الألمان هربوا من المنطقة .

ــ لا .. انهم فى الطريق الى هنا .

وعندئذ اقبل أحد اللاجئين وقال ان ثلاثة من الجنود الألمان

قد وصلوا فعلا الى القرية والقوا بأنفسهم منهكين على كومة من التبن ولا يعرف أحد ماذا يريدون ، ولا لماذا جاءوا .

وسررنا بهذه الأنباء ، لأنه كان من أحب الاماني الينا أن نرى هؤلاء الألمان المتعجرفين يفرون مهزومين ، مجللين بالعار والهوان أمام الحلفاء .

وقال ميشيل فى ابتهاج :

ــ هلم نشاهدهم .

وسار ، وتبعناه ، ولم نلبث أن رأينا ثلاثة جنود فى حالة يرثى لها من الارهاق وسوء الحال .. لقد كان الجندى الألمانى يبدو لنا دائما مرتديا ملابسه وكأنها جاءت توا من الكواء .. ولكننا فوجئنا بهؤلاء الجنود الثلاثة شعثين مغبرين ، ممزقى الملابس ، وكانت نظراتهم تلمع بالحذر والترقب والاستعداد لمواجهة أى طارىء .

وقال أحدهم .. وكان أشعل .. أبيض شعر الراس والحاجبين وأهداب العينين :

ــ انني أجيد الحديث بالايطالية .. وأخبركم اننا ننسحب الآن بسرعة ، ولكننا سوف نصمد بعد قليل ونرد على هذه الهجمات بأقسى منها .

ودهشنا لهؤلاء الجنود الذين راحوا يتحدثون عن الحرب والمقاومة وهم على هذه الحالة اليائسة .. وقبل أن يرد أحدنا عليه، قال فجأة :

ــ اننا نريد اللحاق بكتيبتنا المنسحبة .. ولكننا فى حاجة الى طعام .

وفزعنا ونحن نسمع العبارة الأخيرة ، لأننا لم نكن نملك الاقوت يوم أو يومين على الأكثر وتبادلنا النظرات فى خوف . ولم يسعنى الا أن أعبر عن شعور الجميع بقولى :

ـ أتريدون طعاما ، اننا لانملك منه شيئا ، واذا لم يأت الحلفاء الينا بالطعام في أسرع وقت فسوف نموت جوعا . ولهذا يحسن ان تنتظروا معنا وصول الحلفاء لتجدوا ماتأكلونه .

ونظر ميشيل الى باستياء كأنما يقول :

« ماهذه الجرأة ياحمقاء » .

وادركت انني اخطأت بحديثي هذا ، ولاسيما حين رأيت الالماني الأشعل يمعن في النظر الى كأنما يريد أن يحفظ في ذاكرته ملامح وجهي . وبعد برهة من الصمت ، قال :

ـ ننتظر وصول الحلفاء . أليس كذلك ؟ انها نصيحة طيبة .

ثم مد يده الى داخل صدره واخرج مسدسه وهتف قائلا :

ـ اننا نريد طعاما . . فورا .

ورأينا نظرات الألماني الأشعل تشبه نظرات الوحش المسعور وأدركنا انه ، في حالة يأسه ، لن يتردد في اطلاق النار علينا جزافا، ومن ثم قال ميشيل لروزينا :

ـ اسرعي الى ابي وقولي له .. ان جماعة من الجيش الالماني في حاجة الى بعض الطعام .

ولما انصرفت روزينا الى كوخ فيليبو ، عاد الأشعل يقول :

ـ اننا لانريد طعاما فحسب ، وانما نريد دليلا يقودنا الى كتيبتنا عبر هذه المنطقة الجبلية . . لقد ضللنا الطريق .

فقال ميشيل :

ـ يوجد في الجبال ممر يؤدي الى الشمال حيث انسحبت قواتكم .

فقال الأشعل :

ـ اننا نعرف هذا الممر .. ولكننا نحتاج الى دليل يقودنا فيه، ولعل تلك الفتاة تصلح لهذه المهمة .

ـ اية فتاة تعنى ؟.

ـ الفتاة التى ذهبت لاحضار الطعام .

وتجمدت الدماء فى عروقى حين سمعت هذه الكلمات ، لأننى كنت أومن تماما بأنى لن أرى روزينا مرة اخرى اذا اصروا علىاخذها معهم . ولكن ميشيل قال بهدوء دون ان يفقد سيطرته على اعصابه .

ـ ان الفتاة لاتنتمى الى هذه المنطقة .. وهى اشد جهلا بها منكم .

فقال الأشعل بالهدوء نفسه :

ـ حسنا جدا .. اذن فلتأت انت معنا .. انك تعرف هذه المنطقة كما يبدو عليك .. اليس كذلك ؟.

واردت أن اصيح قائلة لميشيل :

ـ قل لهم انك غريب مثلنا عن هذه المنطقة .

ولكن ميشيل سبقنى وقال :

ـ نعم .. اننى انتمى الى هذه المناطق . ولكننى لا أعرف مسالكها .

فرد الالمانى الاشعل قائلا :

ـ ان من يسمعك يحسب انه لايوجد أحد يعرف دروب هذه الجبال ، وأيا كان الأمر ، فسوف تأتى معنا ، وسنرى ان كنت تعرفها أم لا .

ولم يقل ميشيل شيئا ، وانما قطب جبينه ولزم الصمت .

وكانت روزينا قد جاءت بثلاثة ارغفة من الخبز ، وراحت

تضعها فى خوف بجانب الالمانى ، كما يضع الانسان طعاما أمام وحش كاسر .. وادرك الالمانى الأشعل مايدور بذهنها ، فمد يده وقال لها آمرا :

- ضعى الخبز فى يدى .. اننى لست كلب مسعورا كما تظنين .

ولم يسع روزينا الا ان تطيع الأمر .

وبعد أن فرغ الالمان الثلاثة من التهام أرغفة الخبز القديد ، قال الأشعل وهو ينهض ويترجل :

- الآن .. هلم بنا نمضى والا وقعنا فى الأسر .

ثم وضع فوهة مسدسه فى ظهر ميشيل واردف قائلا :

- وسوف تمضى معنا ايها الفيلسوف الصغير ..

ولما ادرك فيليبو الامر اندفع بشجاعة معدومة النظير وحاول ان يحول بين الألمانى الأشعل وميشيل صائحا :

- لالا .. هذا ابنى الوحيد وفخر حياتى .. دعوه بربكم .. دعوه ، خذونى بدلا منه .. انه لايعرف مسالك الجبال كما أعرفها أنا .

ثم نظر الى زوجته واردف قائلا :

- اننى ذاهب مع هؤلاء السادة فلا تقلقى .. لسوف أعود هذا مساء .

وحاول أن يبتسم برغم آلامه النفسية البالغة ، ووضع يده برفق على كتف الالمانى الأشعل وعاد يقول :

- هلم نمض .. فان امامنا مسافة طويلة يجب ان نقطعها قبل أن يظلم الجو .

ولكن الأشعل قال بهدوء :

ـ انك طاعن فى السن ، وابنك اقدر على القيام بهذه المهمة ، وهذا واجبه .

وازاح فيليبو عن طريقه ، وعاد مصوبا فوهة مسدسه الى ميشيل وقال :

ـ هلم ..

وصاح احد اللاجئين قائلا :

ـ اهرب بجلدك ياميشيل .. اهرب واختبىء .. ان الالمان مجهدون ولن يستطيعوا اللحاق بك .

وفى سرعة البرق استدار الالمانى واطلق النار جزافا .. ومرت الرصاصة بجوار اذن اللاجىء الذى هتف بهذه العبارة وجعلته ينطلق هاربا ، بدلا من ميشيل .

وتفرق اللاجئون بعيدا ، ووقفوا يرقبون الالمان الثلاثة وهم ينصرفون وامامهم ميشيل يسير وفوهة المسدس فى ظهره . ولن انسى فى حياتى ذلك المنظر .. منظر ميشيل وهو يمضى متعثرا ، وسمته العام يشبه الشاة التى يسوقها الجزار الى المجزر .

وزار فيليبو ، واندفع ليلحق بابنه ، ولكن اللاجئين والقرويين امسكوا به ومنعوه من ارتكاب هذه الحماقة التى ما كانت لتنقذه او تنقذ ابنه من الموت . اما الام والاخت فقد شرعتا تولولان وتنتحبان قائلتين :

ـ انفقد عزيزنا ميشيل فى هذه اللحظة .. لحظة الانتصار والخروج من المحنة ؟.

واسترد فيليبو هدوءه وقال لزوجته ليخفف عنها :

ـ انه سيعود .. ان ميشيل ذكى وسيعرف كيف ينجو من هؤلاء الوحوش .. سوف يعود غدا .. اننى واثق بهذا .

وقالت الابنة لتزيد من تهدئة مخاوف الام :

ـ نعم يا أماه ... لسوف يعود ميشيل سالما .»

ولكن الام قالت :

ـ لا ... انه لن يعود ... ولن نراه بعد اليوم .»

ويجب ان اعترف هنا اننا ـ بسبب فرحتنا بانتصار الحلفاء وهزيمة الألمان لم نهتم بما حدث لميشيل الاهتمام الذى كان يمكن أن نشعر به فى ظروف اخرى . وانا نفسى لم أستطع أن أخفى بهجتى الذاتية فى أثناء عودتى الى الكوخ قائلة :

ـ من حسن الحظ انهم اخذوا ميشيل بدلا من روزينا ،وان اختفاء ميشيل لايهم احدا الا اسرته وعلى كل حال لقد كنا سنفترق بعد يوم أو يومين .»

واضفت الى هذا اننا كنا على وشك العودة الى روما حيث نستانف حياتنا الهانئة فيها ، ولانذكر هذه الفترة من حياتنا الاكما يذكر الانسان حلما مزعجا يحاول أن ينساه ... وقد تقول احدانا للأخرى فى غير مبالاة :

ـ إتذكرين المسكين ميشيل ؟ ترى ماذا حدث له ؟»

* * *

وفى اليوم التالى حملنا أمتعتنا القليلة فى حقائبنا الثلاث، وودعنا باريد وأسرته شاكرين له حسن ضيافته لنا ، وكان معظم اللاجئين قد انصرفوا مسرعين والآمال تحدوهم فى العودة الى بيوتهم، وكانت اسرة فيليبو قد انصرفت تبحث عن ابنها ميشيل . وهبطنا الوادى حيث وصلنا الى بيت المسكين تومازينو الـذى كان الألمان يحتلونه ، ثم رحلوا عنه بعد أن تركوه خرابا . وكان الأهالى جميعا لاجئين وغير لاجئين ، يهربون ويختبئون كلما شاهدوا جماعة من الألمان فى طريقهم الى الانسحاب ولما لحقنا بجماعة من اللاجئين الزاحفين الى فوندى ، انضممنا اليهم ، وسرنا بينهم نتبادل معهم الحديث عن الحرب التى انتهت ، وعن المحنة التى زالت ، وعن الحلفاء الذين سيغرقوننا بالخيرات . ولما بلغنا مفترق الطرق ،

سرنا بحذاء نهر صغير حيث رأينا أول « طابور » من جيش الحلفاء وكانوا يسيرون صفا واحدا ، الواحد وراء الآخر ، وقد أدركنا من سماتهم العامة ، ومن مضغهم اللبان ، انهم جنود أمريكيون .. وبعد مسير اربع ساعات ، وصلنا الى فيا آبيا حيث وقفت مفتوحة الفم من فرط الدهشة ، والذهول . ذلك أنى رأيت أول مرة فى حياتى جيشا كاملا .. وكان جيشا أمريكيا .. ولا أذكر انى شاهدت يوما ما مثل هذا الحشد الهائل من الجنود والمعدات والمصفحات والدبابات والمدافع والسيارات على مختلف انواعها .

لقد بدا لى انى أرى بحرا خضما من الجنود والمعدات يتحرك ببطء مسافة ما ، ثم يتوقف لكى يتحرك مرة أخرى ، وأدركنا اننا قد نقف ساعات طوالا حتى يمر هذا البحر من الجنود والمعدات الحربية ، فانعطفنا الى طريق فرعى يؤدى الى مدينة فوندى التى بلغناها فى أقل من نصف ساعة . وهناك رأينا الجنود الامريكيين ينثرون على الأهالى اللاجئين علب الحلوى والسجائر ، وكان اللاجئون والأهالى يتسابقون فى التقاطها ويتقاتلون أحيانا ارضاء للجنود وكان الجنود يبتهجون بهذا المنظر ويتبارون بدورهم فى القاء الحلوى والسجائر على الجميع .

وأبيت ان اشترك فى هذه المهزلة ، واتجهت الى سيارة عسكرية صغيرة كان بها جنديان أحدهما أحمر الشعر ، والآخر أشقر ، فقلت لصاحب الشعر الأحمر :

– أرجو ان تدلنا على خير وسيلة للوصول الى روما .

فظن الشاب انى أطلب منه حلوى وسجائر ، فقدم لى بعضا منها الا انى هززت رأسى وقلت :

– لا .. أريد الوصول الى روما .

ويبدو أنه فهم مقصدى ، فقال بايطالية ركيكة :

– روما .. لا ..

– لماذا ؟.

ـ أن روما .. فيها المان .

وعاد يقـــدم لنا الحلوى والسجائر ، فهززت رأسى مرة اخرى وقلت :

ـ اذا اردت أن تعطينا شيئا ، فاعطنا رغيفا من الخبز .

وهز رأسه بدوره ، وعندئذ تحدث الجندى الأشقر أول مرة ، واشار الينا لنصعد الى السيارة . فلما فعلنا ، اندفع بنا الى ميدان المدينة حيث رأينا حشودا من اللاجئين والأهالى أمام النيابة التى كانت مقرا لمحافظة المدينة ، وكان الحلفاء قد اتخذوها مركزا لتوزيع المأكولات والملابس على الجميع .

وغاب الجندى الأشقر داخل النيابة ، ثم عاد ومعه ضابط ملوح الوجه جميل التقاطيع ، ابيض الأسنان ، علمنا منه أنه ايطالى المنبت وان كان أمريكى الجنسية والاقامة . وأخبرنا هذا الضابط أن روما لاتزال محتلة بالألمان ، وأن الحلفاء لم يدخلوها بعـد .. واخيــرا مضى بنا الى منصة توزيع الطعام ، وأعطانا عـددا كبيرا من علب المأكولات المحفوظة . وشكرنا له هذه المنحة ، ثم مضينا نجول فى انحاء المدينة التى كانت معظم بيوتها مهدمة ، وحتى لقد بدا لنا اننا نسير فى مدينة اثرية ليس فيها غير بقايا من البيوت .

وبلغنا أحد اطرافها بالقرب من المزارع ، ولشـد ماكانت دهشتى حين رأيت كوخا سليما مهجورا . فدخلته مع روزينا وتفقدناه ، فرأينا به سريرا وبضعة مقاعد ، وكانت جدرانه تحمل عبــارات ورسومات بذيئة تركها وراءهم الجنود الفاشيست الذين كـانوا يحتلون هذا الكوخ قبل وصول الحلفاء . وعجبت لوجود مثل هذا الكوخ مهجورا على حين كان اللاجئون فى كل مكان يبحثون عـن أماكن للمأوى . ولكن عجبى لم يلبث أن زال حين كشفت وجود مركز للمدافع المضادة للطائرات على مسير مائتى ياردة من الكوخ .

واسترحنا فى الكوخ قليلا ، ثم تناولنا طعاما من العلب ، وكنا قد استبدلنا باحداها رغيفا كبيرا من أحد القـرويين .. وبعد أن شبعنا وارتوينا ، رقدنا للنوم وقد اسدل الليل ستاره .

ولا اذكر كم ساعة امضيناها نائمتين ، ولكنني اذكر انى فتحت عينى فجاة فاذا ضوء اخضر يغمر المنطقة كلها ، واذا المدفع المضاد للطائرات بالقرب منا يزلزل الأرض بدويه الهائل ، فوثبت من الفراش ، وامسكت بذراع روزينا واندفعت بها الى خارج الكوخ وانا اصيح :

ـ اسرعى .. اسرعى .. اننا سنتعرض للموت اذا بقينا هنا لحظات أخرى .

وظللنا نعدو وازيز الطائرات فوقنا ، ودوى القذائف حولنا ، حتى تعثرنا وسقطنا فى مصرف مائى ملىء بالطين ، وفى تلك اللحظة نفسها سمعنا انفجارا هائلا أحسسنا معه ان الأرض انشقت ، واننا نغوص فى هاوية لا قرار لها .

ولست ادرى كم بقينا على هذه الحال .. ولكننى تجرات ورفعت راسى حين خيم السكون على المنطقة ، واذا ضوء الفجر ينساب خفيفا مترددا ، وانا أنظر الى روزينا الراقدة بجانبى على حافة المصرف ، فأراها شاحبة ترتعد ، وقد كساها الوحل وتمزقت ملابسها .. وتلطخ وجهها بالطين .. ولا شك انى كنت مثلها .

وبقينا على هذا النحو فترة اخرى لاننبس بكلمة . واخيرا نهضنا فى صمت حين بزغت الشمس ، واتجهنا بانظارنا الى ناحية الكوخ ولكننا لم نجد له اثرا .. وانما وجدنا ، حين وصلنا الى مكانه ، كومة من الأحجار والاخشاب والاتربة ، ومن ثم قلت لروزينا :

ـ ارايت ، لو اننا بقينا فى الكوخ ، لمتنا تحت الأنقاض .

فقالت بهدوء مريب :

ـ ربما هذا أفضل مما نحن فيه الآن ياأماه .

ولما رأيت امارات اليأس القاتل على وجهها قلت بحزم :

ـ لسوف نغادر هذه المنطقة باية وسيلة .. وسوف ترين .

— وكيف نغادرها وقد فقدنا كل شيء.. حتى أمتعتنا ومأكولاتنا القليلة .

وتذكرت عندئذ اننا فقدنا كل شيء حقا تحت انقاض الكوخ ، واحسست بدوري بما كان يصطرع فى قلب ابنتى من يأس قاتل ولم يسعنى الا ان اجلس معها على حجر من الأنقاض .. وبقينا على هذا النحو ساعة أو أكثر ، فلم أكن أدرى .. لا نتكلم ولا نرد على كل من يحاول التحدث الينا سواء كان مدنيا أو عسكريا ... واذكر ان جنديا امريكيا مر بنا ، فلما رأى روزينا جالسة كالتمثال لاتتحرك ، ولايبدو على وجهها اى اثر للانفعال ، توقف امامها .. وحدثها بالانجليزية ، أولا ، ثم بالايطالية ، ولكنها ظلت شاخصة النظر امامها ، وكأنها لاترى أو تسمع احدا .. وأخيرا تناول من علبة سجائره سيجارة ووضعها بين شفتيها .. وظلت السيجارة فى مكانها دون أن تشعر بها روزينا .

ولما غدت الشمس فى سمت الظهيرة ، قررت أن أعود الى ميدان المحافظة فى فوندى واطلب مساعدة ذلك الضابط الايطالى الوسيم .

وسرنا ببطء حتى بلغنا مركز قيادة الحلفاء ، ووقفنا فى « الطابور » المنتظر أمام منصات توزيع الطعام ، حتى اذا جاء دورنا ، وقفت أمام الضابط الايطالى الوسيم وذكرت له مأساتنا فى الليلة السابقة فبدا الحزن فى عينيه ، وقال :

— انى استطيع ان اعطيكما بعض الطعام وبعض الملابس ، كما فعلت بالأمس ، وهذا اقصى ما فى وسعى ان افعله .

فقلت له فى رجاء :

— اتوسل اليك ان تعيدنا بأية وسيلة الى روما ... ان لنا بيتا فيها ، و ..

وقاطعنى قائلا :

ـ كيف ارسلكما الى روما وقواتنا لم تدخلها بعد ؟.

ولم أجد ماأقوله بعد ذلك ، ولما أعطانا حاجتنا من علب الطعام وبعض الملابس قلت له فجأة قبل ان انصرف :

ـ ان اهلي يقيمون في الريف ، بالقرب من فالليكورسا .. أو على الأصح هناك ولست أدرى أين هم الآن .. ولكن .. ألا من سبيل للذهاب اليهم ؟.

فهز رأسه وقال آسفا :

ـ لا استطيع ان افعل شيئا .. ان استخدام السيارات العسكرية مقصور على العسكريين أو على الذين يعملون معهم .

وفي تلك اللحظة ، شعرت بيد تربت على كتفي ، فلما نظرت رأيت جنديا ايطاليا من الذين يعملون مع قوات الحلفاء ، واذا هذا الجندى الايطالى يهمس لى قائلا :

ـ هناك وسيلة يمكنكما الوصول بها الى فالليكورسا .. تعالى معى الى الخارج وسوف أخبرك بها .

الفصل التاسع

القرية المهجورة

قال لنا هذا الجندى الايطالى حين وصلنا معه الى الشارع :

ـ سمعت أمس عن حالة اثنين من اللاجئين ، زوج وزوجته أعادهما الحلفاء الى قريتهما حين اثبتا للسلطات المسئولة انهما استضافا في الشتاء أسيرا انجليزيا وساعداه على الهرب من الألمان . فاذا كنتما فعلتما شيئا من هذا النوع ، فان القيادة العسكرية للحلفاء لن تتردد في تقديم كل مساعدة ممكنة لكما .

ولاول مرة بدا الاهتمام على روزينا وقالت بانفعال :

ـ أتذكرين ياأماه الجنديين الانجليزيين اللذين استضفناهمافى عيد رأس السنة .

واومأت برأسي . وكان الجنديان لحسن الحظ ، قد سلمانى ورقة كتبا فيها شيئا وطلبا منى أن اقدمها لقيادة الحلفاء فيالوقت المناسب . ولكن الأحداث التى تلت هذا كله ، أنستنى أمر هذه الورقة .

واسرعت أفتش عنها فى الكيس الجلدى الذى كنت احتفظ فيه ببقية نقودى .. ولشد ماسعدت حين عثرت عليها . وعندئذ قلت بابتهاج :

ـ لقد نجونا أخيرا ..

ثم حدثت الجندى الايطالى بالأمر ، فقال :

ـ اذن تعاليا معى .. انني واثق أن القيادة العسكرية سوف ترحب بكما وتقدم لكما كل معونة ممكنة .

ووصلنا الى مركز قيادة الحلفاء ، وكانت فيبيت آخر ،وصعدنا مع بنيتو ـ الجندى الايطالى ـ الى الطابق الثالث ، حيث رأينا عددا كبيرا من الجنود والمدنيين الايطاليين يروحون ويجيئون ويدخلون بعض الغرفات ويخرجون منها .

وطلب بنيتو منا أن ننتظره فىردهة صغيرة أمام احدىالغرفات ثم مضى بالورقة. ولم يلبث أن عاد ومعه ضابط أمريكى كبير ،رحب بنا وشد على ايدينا مصافحا ، ثم استقبلنا فى مكتبه وهو يقول بلغة ايطالية سليمة :

ـ انالرسالة التىقدمتماها ذات اهميةكبيرة . واننانشكركما أعظم الشكر .. ونريد الآن أن تذكرا لنا بعض المعلومات عن هذين الجنديين .

فلما وصفتهما له بدقة ، قال :

ـ وماذا كانا يرتديان ؟.

ـ « سترات » من الجلد الاسود و « بنطلونات » زرقاء طويلة .

ـ هل كانا يضعان على راسيهما شيئا ؟ .

ـ نعم .. قبعات عسكرية .

ـ هل كانا مسلحين ؟.

ـ نعم .. كان مع كل منهما مسدس .

ـ ومتى كانا معكما ؟.

ـ فى ليلة عيد راس السنة .

ـ وكم يوما امضياها فى ضيافتكما ؟.

ـ يوما وليلة .. لأنهما كانا متعجلان للعودة الى قواتهما . كما كانا يخشيان ان يفشي سرهما احد للالمان .

واومأ الضابط الكبير براسه ، ثم قال :

ـ ان مساعدتكما لهذين الجنديين تعتبر جميلا نتمنى ان نسدد جزءا منه .. فماذا يمكن ان نفعل لكما ؟.

وسردت عليه قصتنا كلها .. واخبرته انه لم يعد لدينا طعام ولا شراب ولا ملابس ولا ماوى ، واننا لانعرف احدا فى فوندى .. ولهذا نريد العودة الى اهلنا فى قرية فاليكورسا حيث نقيم والدي وحيث يمكننا على الأقل ان نحيا فيها بأمل الى ان تتم عملية تحرير روما .

وانصت الى الضابط باهتمام ، ثم قال فى النهاية :

ـ ان ما تطلبانه يتنافى مع الأوامر العسكرية الصارمة . ولكن الانسان يستطيع عادة ان يجد فى كل امر ثغرة ينفذ منها .. ولهذا يمكننى ان ارسلكما مع جندى فى سيارة عسكرية مهمتها الاساسية هى البحث عن هذين الجنديين اللذين استضفتماهما .. ويمكن الجندى فى اثناء هذا البحث ان يوصلكما الى قريتكما .

ولما حاولت ان اشكره ، قاطعنى قائلا :

- ان الواجب ان نشكركما ... والآن ... اذكر لى اسميكما .

ودون اسمينا فى ورقة امامه ، كما دون قائمة بكل ما نحتاج اليه فى رحلتنا ، ثم نهض وودعنا الى البـــاب ، وطلب من احد مرءوسيه ان يذهب بنا الى غرفة النوم والراحة ولم نلبث ان وجدنا انفسنا فى غرفة كبيرة بها سريران ، ومنضدة للزينة ، وخـــزانة ملابس وحمام خاص . وبعد ان اغتسلنا وارتدينا ملابس نظيفة ، جلسنا على السريرين ونحن لا نكاد نصدق ان الحظ ابتسم لنا على هذا النحو المفاجىء .

ولفرط احساسي بالبهجة ، عانقت ابنتى روزينا التى خضت بها هذه المحنة وخرجت بها سليمة ، وقلت لها :

- لقد انتهت متاعبنا تماما الآن يا حبيبتى ... ولسوف نمضى بضعة ايام فى قريتنا ثم نعود الى حياتنا السابقـــة فى روما ...

فقالت روزينا بوداعة الحمل :

- اجل يا اماه ..

وهكذا نمنا ليلتنا والاحلام السعيدة ترفرف علينا .

واستيقظنا مع الفجر على طرق مرتفع على الباب حتى ظننت ان الطارق سيحطمه ولما فتحته رايت بنيتو - الجندى الايطالى - قد جاء يطلب منا الاسراع بالاستعداد ، للرحلة ، لان السيارة واقفة امام المبنى فى انتظارنا .

وما هى غير دقائق حتى ارتدينا ملابسنا الجديدة الخضراء ، وحملت كل منا صندوق المؤن والامتعة ، وهبطنا الى الســـــيارة المنتظرة حيث وجدنا امام عجلة القيادة جنديا انجليزيا اخبرنا ، باقتضاب ، ان لديه تعليمات صريحة بحملنا الى قرية فالليكورسا ، وان علينا الاسراع بالركوب لنصل اليها قبيل الظهيرة .

وجلسنا على مقعد وراء الجندى الانجليـــــزى الذى انطلق بالسيارة بين خرائب مدينة فوندى ... وكان الاهالى اللاجئـــون

ينظرون الينا فى دهشة وحسد .. ولو انهم علموا المصير الذى كان ينتظرنا فى ذلك اليوم ، لأشفقوا علينا ، ولرثوا لحالنا .

وظل الجندى الانجليزى يقود السيارة بسرعة رهيبة وهو ملتزم الصمت متجهم الوجه كأنما يسخط على الظروف التى جعلته يقوم بدور السائق لامرأتين ايطاليتين مشردتين ولكنى لم احفل بهذا لأنى كنت اشعر بسعادة غامرة كلما قطعت السيارة شوطا فى الطريق الى قرية والدى .

وبعد انطلاقنا فترة ما على جانب نهر صغير فى واد ضيق عميق ، خرجنا الى الطريق العام حيث اتصل النهر الصغيربالمجرى العام لنهر التيبر ، وما لبثنا أن بلغنا سفوح الجبال التى كانت ترتفع تدريجا ، والتى طالما نعمت برؤيتها والجولان فيها وانا فى مرحلة الطفولة والصبا .

واستمررنا على هذا النحو مسافة طويلة ، وفجأة وصلنا الى مدخل القرية ، وكان ثمة بيتان يقومان على المدخل ، فتعجلت لفرط سرورى ، ولمست كتف الجندى الانجليزى واخبرته ان فى مقدوره ان يتركنا هنا .

وكنت ، لشدة انفعالى ، لم ألاحظ انى طوال الطريق لم ار احدا على الاطلاق لا من الفلاحين ، ولا من اللاجئين ، ويبدو ان انشغالى بأفكارى وسعادتى وآمالى جعلتنى اغفل عن ملاحظة هذه الظاهرة .

وأسرع الجندى الانجليزى وساعدنا على الهبوط ، ثم ساعدنا على حمل صندوقينا الى الأرض ، ولم يلبث ان حيانا واستدار بالسيارة وانطلق بها عائدا وكانما ازاح عن كاهله عبئا ثقيلا .

ولما غابت السيارة عن انظارنا ، وانقطع صوتها عن اسماعنا ، شعرت أول مرة بالسكون المخيم حولنا ، واحسست اننا هبطنا فى مكان مهجور .

وتطلعت الى البيتين القائمين فى مدخل القرية ، ولاحظت ان

الابواب مغلقة وكذلك النوافذ ، وان على الابواب والنوافذ قطع — مسمرة — من الخشب تنم عن خلو البيت من السكان .

وادركت خطئي فورا .. فقد كان البقاء في فوندي،مع الناس برغم الاغارات الجوية ، افضل كثيرا من البقاء في قرية مهجورة .

ولكني قلت لروزينا بشجاعة مصطنعة :

— يمكننا ان نعود الى فوندي في اي وقت .. فلا شك اننا سنرى الكثير من السيارات العسكرية تمر على الطريق العام ..

وكأنما شاءت الأقدار ان يثبت صدق حدسي ، فاذا بنا نرى « طابور » من السيارات العسكرية يقبل في الطريق . وكان ركاب السيارات جنودا أجانب لهم سحنات غريبة تشبه سحنات الأتراك وكان ضباطهم يرتدون الملابس العسكرية الفرنسية . وقد علمت فيما بعد أن هؤلاء الجنود هم من رجال الفرقة الأجنبية الفرنسية المرابطة في مراكش .

ووقفنا جانبا ريثما يمر ذلك « الطابور » واخيرا قلت لروزينا :

— انهم من قوات الحلفاء وان كنت لاأعرف جنسيتهم..ولكننا نخشى على أنفسنا منهم برغم نظراتهم الجائعة الينا .

ولما ابتعد « الطابور » عنا ، استدرنا ودخلنا القرية التي كانت ساكنة تماما ، وكأنها ساحة المدافن ، كأن بيوتها الصامتة المغلقة قبور .

ووصلنا الى بيت والدي .. ولكننا وجدناه ، كما توقعت ، مهجورا ومغلقا ومن ثم اتجهنا الى الكنيسة الصغيرة القريبة من البيت لنستريح ونأكل شيئا .. ولشد ما احسست بالأسى حين وجدت الكنيسة من الداخل في حالة يرثى لها ، وكأنها كانت مربطا للخيول ..

رأيت المقاعد مبعثرة ، والمذبح مقلوبا ، وصورة العذراء والطفل معوجة على الجدار ، ولم يسعنى الا أن أقول لروزينا وانا اتهالك جالسة على اقرب مقعد خشبى :

ـ هذه هى الحرب .. انها لا تحترم حتى الأماكن المقدسة .

ولكن روزينا كانت قد ركعت أمام صورة العــذراء ، وراحت تبتهل .

وقلت لها بصوت خافت :

ـ احسنت صنعا بابتهالك .. صلى من اجلك .. ومن اجلى ، لانى لا أجد بى رغبة للصلاة ..

وفى تلك اللحظة سمعت وقع خطوات خافتة تتســـلل الى الكنيسة .

الفصل العاشر

المأســـاة

ونظرت بسرعة الى باب الكنيسة ولمحت شبحا يظهر بسرعة ثم يختفى ، ولكننى استطعت أن اتعرف عليه من ملابسه .. كان واحدا من هؤلاء الجنود الذين شاهدتهم قبل ذلك بقليل يمـــرون فى « طابور » بالسيارات .. الجنود الذين عرفت انهم من الفــرقة الأجنبية .. أو الجنود المرتزقة فى مراكش .

وامسكت بذراع روزينا وهمست لها فى خوف :

ـ هلم ننصرف ..

ونهضت ، ورسمت علامة الصليب على صدرها ، وساعدتها فى حمل صندوقها على رأسها ، ثم وضعت الآخر على راسى ، واتجهنا ناحية الباب لننصرف .

وما كدت اخطو اولا من الباب حتى وجدت نفسي وجها لوجه مع جماعة من هؤلاء الجنود الشبيهين بالأتراك .. وتقدم احدهم ودفعني في صدري الى الداخل متمتما بكلمات غامضة. ولما امسك بذراعي وراح يجذبني الى داخل الكنيسة ، صحت قائلة :

ـ ما معنى هذا ؟ ماذا تريدون منا ؟ .. اننا لاجئتان .

والقيت بالصندوق من فوق راسي لاقاوم الجندي المرتزق الذي طوقني بذراعيه .. وسمعت صرخة عالية من روزينا .. وبذلت جهدي لأتخلص من تطويق الجندي لي .. ولكنه كان قويا شديد البأس ..

ولست ادرى على وجه التحديد ماذا حدث بعد ذلك ، لأنه كان اقرب الى كابوس رهيب منه الى حقيقة واقعة ..

ولما افقت من غشيتي ، جعلت انظر حولي كما يفعل النائم حين يستيقظ فجأة فلا يدري أهو لا يزال نائما أم استيقظ ..

وبدات اتذكر كل شيء .. ورأيت روزينا جالسة بجواري في سكون والدموع تنثال من عينيها الشاخصتين الى صورة العذراء.

وادركت ان اى حديث لن يخفف عني او عنها هول المأساة ؛ فنهضت في سكون وجمعت علب المأكولات التي تدحرجت من الصندوقين ، ثم وضعت احدهما على راس روزينا التي كانت تتحرك كما يتحرك المستغرق في النوم ، وحملت الآخر ، وغادرنا الكنيسة التي تمت بين جدرانها المأساة .

ولم يخفف من وقع المصاب على نفسي انى عرفت ، فيما بعد ، ان هؤلاء الجنود المرتزقة ارتكبوا سلسلة من الجرائم الوحشية في اماكن كثيرة من المنطقة التي عسكروا فيها ..

وعدنا نسير في شوارع القرية بين صفوف المنازل الساكنة المهجورة حتى بلغنا الطريق العام ، وبرغم الشمس المشرقة والهواء المنعش ، فقد احسست بالتعب الشديد الذي كانت اماراته تبدو

بوضوح على وجه روزينا وتظهر من خطواتنا المتعثرة البطيئة ومن ثم قلت لها :

ـ لسوف نتوقف عند اول مخزن للمحصولات لنستريح ريثما نعثر على سيارة تحملنا الى فوندي ..

ولم تجب روزينا بشيء ، وانما سارت بجـوارى فى سمت الانسان النائم الذى اعتاد ان يسير فى اثناء نومه .

وسرنا نحو مائتى ياردة حتى راينا سيارة جيش مكشوفة عليها ضابطان فرنسيان ـ كما عرفنا من ملابسهما ـ ولوحت لهمـا بالتوقف ، ثم تسمرت في وسط الطريق أمـام السيارة واضطر سائقها الى ايقافها ، وعندئذ صحت قائلة بغضب شديد :

ـ اتعلمان ماذا فعل جنودكم المرتزقة ؟ لقد فعلا ما تتـورع الوحوش عن مثله ..

وقال احد الضابطين بلغة ايطالية ركيكة :

ـ هدئى من نفسك يا سيدتى .. انها الحرب .

ـ اهى الحرب حقا ؟ وماذا جنينا لكى نعانى من هذه الحرب على هذا النحو القاسى ؟ نعم .. ماذا فعلت بكم او بغيركم ؟. اريد أن اعرف .. أريد ان اعرف !.

وكنت اصرخ كالمجنونة حتى ظن الضابطان اننى جننت فعلا ؟ فأشار احدهما بيده الى راسه ، وعندئذ ازددت اهتياجا وصحت قائلة :

ـ اننى لست مجنونة .. ولو اننى جننت لكان لى العذر ...
ولكن الضابطين اندفعا بالسيارة كالصاروخ .

واستمرت روزينا واقفة كالتمثال والصندوق على راسـها وذراعاها مرفوعتان لتمسكا به ، وساقاها ملتصقتان ، ونظراتها

شاخصة حتى حسبت أنها جنت تماما . ومن ثم قلت لهـا فى خوف :

ـ ياحبيبتى ؟. لماذا لاتتحدثين ؟ ان ماحدث لم يـكن لنا فيه يد انها الأقدار .. تكلمى مع أمك يا ابنتى ..

وقالت بهدوء :

ـ لا عليك يا أماه .. لقد بدات افيق من الصدمة ..

فتنهدت بارتياح وقد خامرنى شعور بالتفاؤل والاستبشار وقلت :

ـ هل يمكنك السير مسافة اخرى قصيرة ؟ .

ـ نعم يا أماه ..

فوضعت الصندوق على راسى مرة أخرى ، وكانت آلام جسمى تزداد حدة ، حتى اذا بلغنا مرتفعا فى الطريق ، رأيت كوخا من هذه الأكواخ التى اعتاد سكان الجبال ان يربطوا فيها ماشيتهم ، ومن ثم قلت لروزينا :

ـ لم يعد فى مقدورى ان أواصل السير .. لنـدخل هـذا الكوخ ونستريح .

وسارت روزينا بجوارى فى صمت .. وماكدنا نبلغ الكوخ حتى رأينا بابا موصدا بقطع من الخشب المتين المثبتـة عليـه بالمسامير ، وادركت أننا لن نستطيع فتح الباب ولكننى سمعت ثغاء خافتا ، فأيقنت أن الفلاحين تركوا فى الكوخ بعض الأغنام عند اسراعهم بالهرب .. وكان الثغاء خافتا كالأنين كأنه ابتهال انسان يحتضر فى طلب الغوث والرحمة . والقيت الصندوق عن رأسى بسرعة ، وكذلك فعلت روزينا ، واندفعنا ، كالمجانين ، نرفع جانبا من السقف المكسو بالأعشاب الجافة ، وبعد نحو ساعة من العمل المضنى استطعنا ان نفتح ثغرة واسعة امكننا منها ان نخرج ثلاثا من الغنم الهزيلة الضامرة . ولما وثبت الى داخل الكوخ ، رايت حملين صغيرين يقفان امام شاة فاقدة الحياة .. وادركت أن الشاة

ماتت في اثناء وضعها للحملين ولكنهما نجوا من الموت بامتصاص ما كان في ثدائها من اللبن ..

حتى الحيوانات الوادعة لم تنج من أهوال الحرب !.

واستطعت مع روزينا ان نخرج جثة الشاة ، وهرب الحملان الى المزارع . وأمضينا في ذلك الكوخ ليلتنا .

***

وخرجنا في صباح اليوم التالي ننتظر سيارة ، ولـكن دون جدوى .. وهكذا أمضينا في الكوخ ثلاثة أيام كان الطعام الذي معنا يتناقص بسرعة ، لأن روزينا كانت تلتهمه كالذئب الجائع .. ولن أنسى ما حييت هذه الأيام الثلاثة الرهيبة ، لقد كانت روزينا تنتهز فرصة استغراقي في النوم ، وتختفي بضع ساعات .. ولكني كنت آمل في قرارة نفسي أن تزول هذه الصـدمة ، أو آثارها ، وأن ترتد ابنتي الى طبيعتها في الوقت المناسب .

وقلت لها في صباح اليوم الرابع :

ـ يحسن أن نحاول الذهاب الى فوندي سيرا على الاقـدام .. والا تعرضنا مرة اخرى للجنود المرتزقة المعسـكرين في هذه الناحية .

فقالت بهدوء !

ـ لا يا اماه .. ان الحياة هنا خير من التعرض للموت بقذائف الطائرات في فوندي ..

وتجادلنا فترة من الوقت ، واستطعت في النهاية ان اقنعها بأن الاغارات على فوندي لابد قد توقفت بعد ان تحـرك الجيش منها في الطريق الى روما .. وهكذا بدأنا الرحلة في ذلك اليوم نفسه .

وبعد أن مرت بنا سيارات عسكرية كثيرة ـ رفض ركابها أن يحملونا لأننا مدنيون ـ امكنني أن أوقف سيارة مكشوفة كان يقودها

شاب بسرعة مزعجة وبطريقة تنم عن العبث والمرح ... وكان يرفع عقيرته بالغناء وبعبارات تنم عن فرحته بالحيـــاة ... وكان فى الواقع شابا يانعا وسيما أزرق العينين ، ذهبى الشـــعر نظيف الملابس ، ايطالى السمات ، ولما توقف أمامى ، صحت قائلة :

ـ اننا لاجئتان .. فهل يمكنك ان تحملنا الى فوندى ؟.

فصفر بشفتيه وقال :

ـ انكما محظوظتان ... فانا فى طريقى اليها ... ولـكن اين اللاجئة الأخرى .

وكنت كعادتى فى مثل هذه الظروف ، قد اخفيت روزينا وراء بعض الشجيرات النامية على جوانب الطريق . ولما سمعت سؤاله ناديتها ، وما كاد يراها حتى التمعت عيناه ، وهو يرى روزينا مقبلة رافعة ذراعيها لتمسك بالصندوق .

وقال لها حين اقتربت من السيارة :

ـ قالت أمك انك لاجئة مثلها ، ولكنها لم تقل انك ملـــكة جمال ؟.

ثم وثب وساعدها على الجلوس بجواره ، وجلست أنابجوارها من الناحية الأخرى واطلق هو العنان للسيارة قائلا :

ـ الى فوندى مع اجمل فتاة فى ايطاليا .

ولم استطع ان احتج على حديثه الجرىء بكلمة ، لاننى رأيت ان الاحتجاج فى مثل هذه الظروف ، لامعنى له . واخذنا بطبيعة الحال نتبادل المعلومات ، فاخبرته بقصتنا كاملة ، واخبرنى هوانه هرب من الجيش الايطالى بعد خروج ايطاليا من الحرب ، ولـــكن الالمان قبضوا عليه ، وبعد بضعة ايام من العمل فى التحصـينات بالجبهة الامامية ، احبه قائد المانى ، ودفع به للعمل فى مطـــابخ المعسكر .. وقد امضى ـ كما قال ـ اسعد فترة من حياته فىهذه المطابخ ، لانه اكل فيها ما لم ياكل مثله فى حياته .

ولما سألته ماذا يفعل بعد وصول الحلفاء ، قال :

ـ انني شريك لجماعة من الايطاليين الذين يحملون اللاجئين الى حيث يريدون بأجور باهظة .. ولكنني لن اتنــــاول منكمــــا اجرا .

ثم أردف قائلا :
ـ ان اجرى هو أن تكون هذه الحسناء راضية عنى .
واخبرنا بأن اسمه كلوروندو ،وعرف أن اسم ابنتى روزينا،وهنا قال لها :

ـ لشد ما انا آسف لأن ازمة الطعام قد انفرجت .. ولكن هناك أشياء أخرى جديدة تســــتهوى النساء .. ما رأيك فى الجوارب النايلون ياروزينا ، والقمصـــان الحريرية المطـــرزة .. والاحذية الأنيقة ، والفساتين الصوفية الناعمة ؟ .

فابتسمت روزينا وقالت :
ـ هل هناك امرأة تكره الحصول على شيء من هذا ؟.
ـ آه .. يلوح أننا سنتفاهم .. نعم .. بالتأكيد سنتفاهم ..
وفزعت انا ولم أتمالك نفسى من القول :

ـ من تحسبنا ياكلوروندو ؟.
فقال بصوت فيه رنين التهكم :
ـ لا داعى للثورة .. اننى أعرف انكما لاجئتان فى حاجة الى مساعدة .

وظل يندفع بالسيارة فى سرعة مخيفة وهو لا يكف عن الثرثرة حينا وعن الصفير أو الغناء حينا ، وكان له العذر فى الغناء ، لأن الجو كان جميلا ، والطبيعة حسنة كما كان الهواء مفعما بشـــذا جديد .. شذا الاحساس بالحرية والانطلاق بعد كل هذه الأشهر من الضيق والعبودية . وانا لم انكر عليه احساسه بهذه الحرية ، الا أن حريته كانت كحرية الرجل الوغد الذى لا يحترم حرية غيره ولا يهمه الا نفسه . أما حريتنا فكانت تدور حول رغبات بسيطة .. رغبات المواطن العادى الذى يحترم القانون ، ويحتـــرم حريات

غيره .. رغبات انسان يريد أن يعود الى بيته والى عمله ويستانف حياته البسيطة من جديد .

ووصلنا الى قاع الوادى ، وسرنا فى الطريق الذى كنت اعرف معالمه جيدا ، الجبال في جانب ، وبساتين البرتقال فى الجانب الآخر ، وهو الطريق نفسه الذى رايته آخر مرة مزدحما باللاجئين والفلاحين وجيوش الحلفاء .. اما الآن ، فقد كان مهجورا بعد أن بقيت الجيوش فيه بضعة أيام وزعت خلالها كميات من المؤن والملابس على اللاجئين ثم تحركت فى الطريق الى روما حيث كانت تتوقف بين الحين والآخر لتوزع كميات أخرى من المؤن والملابس وهكذا .

وبمعنى آخر كان الحلفاء يعيدون الحياة مدة يومين او ثلاثة الى المناطق التى ينتزعونها من الألمان ، ثم يواصلون الزحف ، تاركين كل شيء الى ما كان عليه .

وقلت لكورندو وانا ارى المدينة المهجورة الخربة :

ـ وماذا سنفعل فى هذه المدينة ؟ اننا لا نستطيع البقاء فيها حتى تصل الى روما .

فرد قائلا :

ـ ان روما لم تتحرر بعد ، ولكننى ساتولى العناية بكما .

ـ كيف ؟.

ـ اننى أعرف اسرة تقيم فى بساتين البرتقال . ويحسن ان تقيما معها حتى تتحرر روما وتعودا الى بيتكما .. ولسوف اذهب بكما اليها فى الوقت المناسب .

ومرة اخرى لم اقل شيئا . وماذا كان فى مقدورى ان اقول وقد اصبحت حياتنا بين يديه ؟.

ولما وصلنا الى الكوخ القائم بين بساتين البرتقال تبينت انه الكوخ القرمزى الذى كانت تملكه كوتشينا وزوجها فنسنزيو وابناها اللصان .. الأسرة نفسها التى اقمت انا وروزينا معها

اياما قبل هربنا الى الجبال ..

وما كدت اوقن بهذه الحقيقة ، حتى قلت لكلوروندو !

ـ لا .. لن نقيم فى ضيافة هذه الأسرة .

ـ لماذا ؟

ـ لأننا اقمنا معها بضعة ايام منذ شهور ، واضطررنا الى الهرب ، انها أسرة لصوص . وقد ارادت هذه المراة كوتشينا ان تبيع روزينا لجنود الفاشيست لتنقذ ولديها ..

ـ ان هذا كله ذهب مع الماضى ، ولم يعد هناك جنود فاشيست ، وان ابنى كوتشينا هما شريكاى الآن .. فلا تخافى شيئا .. انهم جميعا سيعاملونكما بكل احترام اكراما لى .. وسوف ترين .

وقبل ان استأنف الاحتجاج ، جاءت كوتشينا تهرع من الكوخ الينا ، وتفتح ذراعيها لتعانقنا وتقبلنا بطريقتها المفعمة بالحماس وتهتف قائلة والدموع فى عينيها :

ـ حمدا لله على سلامتكما .. من كان يظن اننا سنلتقى هكذا بسلام بعد كل هذه المحن .. لقد هربتما دون ان تودعانا بكلمة .. ولكن .. لا عليكما انها الحرب والمحنة .. وقد أحسنتما بالهرب ، لأن ابنى هربا كذلك حتى لا يقعا فى اسر القوات النازية .. حسنا حسنا .. لقد انتهى هذا كله .. وسوف يبتهج زوجى وابناى برؤيتكما .. وستكونان على الرحب والسعة ولا سيما انكما فى حماية كلوروندو .. انه كابنى .. واننا نعمل معا لخير الجميع .. هلم الى البيت .. هلم الى الأمن والراحة والاستقرار حتى تعودا الى روما فى أمان ..

اقبل زوجها فنسنزيو يحيينا بعباراته الناقصة البلهاء ، على حين استطردت كوتشينا تقول بالحماس نفسه ، وهى تمضى بنا الى الكوخ !

ـ اخبرنى فنسنزيو انكما كنتما مع فيليبو واسرته فى قرية سانت ايفيميا مسكين فيليبو لقد ضاعت ثروته أولا .. ثم ابنه ميشيل ثانيا ، الم تعرفا بما حدث لميشيل لقد قتله الألمان ..

فصحت قائلة فى فزع :

ـ قتله الألمان ؟.

ـ نعم . قتلوه حين اراد ان يدافع عن أهل قرية اراد الألمان أن يدمروها عند انسحابهم.. قتلوه بلا رحمة .. وتركوا جثته في العراء .. ان اهالي فوندي يتحدثون عنه كأنه قديس ..

وهكذا مات ميشيل .. وتهالكت على مقعد ورحت ابكي بحرارة وكأني أبكي ابنا لي .. وتذكرت آخر مرة رأيته فيها وهو يسير أمام الجنديين الألمانيين .

وبكيت ميشيل .. وبكيت نفسي وابنتي .. وقالت كوتشينا:

ـ ابكي واذرفي الدمع غزيرا .. فطالما بكيت حين هرب أبنائي الى الجبال ، ان البكاء يريح الأعصاب ، ويعيد الهدوء الى النفس مسكين ميشيل .. ولكنها الحرب .. الحرب .

وبعد ان هدأت نفسي ، قال كلورندو مشيرا الى سريرين في الغرفة :

ـ سوف تقيمان هنا كما تشاءان .. ولن تتقاضى كوتشينا منكما أجرا .. انكما ضيفتاي .. اتفهمين يا كوتشينا ؟. اقدمي لهما كل ما يحتاجان اليه من طعام ..

وقالت كوتشينا بحماستها :

ـ طبعا .. طبعا .. اننا جميعا افراد أسرة واحدة .. تربطنا محنة واحدة ، ولسوف اتركهما الآن ليستريحا .

ولما انصرفت مع كلورندو ، جلست على الفراش بجانب روزينا التي ظلت صامتة طوال ذلك الوقت . وعندئذ هتفت قائلة :

ـ ماذا بك ؟ لماذا لاتبكين على ميشيل ؟ الا تحزنين لموته بعد أن افتداك بنفسه ؟.

وعندئذ سمعتها ترد قائلة :

ـ انني حزينة من أجله يا اماه ..

ـ اذن لماذا لا تذرفين عليه دمعة واحدة ؟ ماذا جرى لك ؟.. اخبريني .

فقالت روزينا بهدوء مثير :

ـ ارجوك يا أماه أن تدعيني وشأني .

وجلست صامتة برهة شاخصة البصر امامى .. ونهضت روزينا الى فراشها والقت بنفسها عليه .. وفى النهاية شعرت بالرغبة فى النوم ، واذا انا استغرق فيه بدورى .

الفصل الحادى عشر
الغواية

ولما استيقظت ، لم اجد روزينا فى فراشها ؟ وسمعت كوتشينا تتحدث مع زوجها وهى تعد مائدة الطعام فى الساحة الواقعة امام باب الكوخ فنهضت وفتحت الباب ، وقلت لها :

ــ اين روزينا يا كوتشينا ؟. الم تريها ؟.
فقالت المرأة بلا اهتمام :
ــ لقد خرجت مع كلورندو .
ــ خرجت مع كلورندو ؟. ماذا تقصدين ؟.

ــ لقد ذهب كلورندو بسيارة كبيرة ليحمل بعض اللاجئين الى لينولا ، وذهبت روزينا معه لأنه لم يشأ ان يعود وحده . واعتقد انهما سيعودان بعد الظهر .
ــ الم تترك لى رسالة معك ؟.

ــ لا .. طلبت منى فقط ان اخبرك ، ولم يطاوعها قلبها أن توقظك لتخبرك بأمر بسيط كهذا . انها ابنة حانية .. وهى تحب كلورندو وتريد أن تكون معه .. ونحن الامهات ، كما تعلمين ، نسبب الاحراج لبناتنا فى بعض مراحل الحياة .. وان كلورندو شاب وسيم ، ولا شك انه مناسب جدا لروزينا .. الا ترين هذا ؟.

فقلت محتدة :
ــ لو لم تحدث لنا مأساة ما فكرت روزينا فى مجرد النظر الى شاب مثل كلورندو .

وأدركت خطئى حين نطقت بهذه الكلمات ، لان المرأة اسرعت تقول :

ـ اخبريني ماذا حدث ؟. الواقع أن روزينا تتصرف بطريقة غريبة .. اخبريني ماذا حدث ؟.

ولست ادرى لماذا اخبرت كوتشينا بالقصة ، أو بالمأساة كلها : فلما فرغت منها ، وقد استرحت نفسيا بعض الشيء ، قالت وهى تضع اناء الحساء على المائدة :

ـ يا للمسكينة .. يا للمسكينة روزينا . ما اشد حزنى .. ما أشد فجيعتى .

وعادت تقول بالحماس نفسه :

ـ ولكن الحرب حرب ..

وصحت فيها بعنف قائلة :

ـ انك لا تفهمين معنى ما حدث لروزينا .. ولكن لا تتحدثى عن مأساة روزينا مرة أخرى والا ...

فتراخت فى دهشة وقالت :

ـ عجبا ؟. ماذا اغضبك ؟. لقد قلت فقط ان الحرب حرب.. فلماذا تغضبين من ذلك ؟.

ورأيت ان الجدل مع امرأة كهذه لا يجدى ، فسكت .

* * *

ولن أستطيع أن أصف مشاعرى وأنا أنتظر عودة روزينا لحظة بعد أخرى .. وكان الغضب من خروجها يمتزج فى نفسى احيانا بالخوف عليها ، وكثيرا ما نهضت آملة ان أراها عائدة .

ووصلت روزينا بعد الظهر .. وكان كلورندو حريصا فطنا ، اذ اختفى عن عينى فى تلك اللحظات ، لانى ما كنت لاتردد فى الانقضاض عليه ، ونظرت الى روزينا وأنا أتحفز لها ..

وحيتنى بكل هدوء ، وراحت تخلع ملابسها التى كانت جديدة كلها ، ثم جلست على الفراش وأخذت تنزع عن ساقيها جوربا من النايلون الرقيق وتتأمله فى اعجاب .

وقلت لها وانا اكظم غضبى !
ـ اين كنت ؟.

ـ مع كلورندو ...
وفجاة صحت قائلة وانا الهث !

ـ انك لاتدرين خطر الطريق الذى تسيرين فيه . اتفهمين ؟.
وارتدت ملابس النوم ، وقالت بهدوء وهى تستدير بظهرها الى وترقد على الفراش :

ـ اننى فى اشد الحاجة الى النوم ياأماه ... ارجو الا يزعجنى احد .

ولم يسعنى عندئذ الا ان أفرج عن نفسى بالبكاء .

* * *

واستمر الحال على هذا النحو فى الأيام التالية . ولم تكن روزينا تتحدث الى لا لأنها غاضبة أو مستاءة منى ، وانما لأنها لم تكن تجد ما تقوله لى . وكانت تمضى مع كلورندو فى جميع رحلاته ، وتغيب معه الأوقات الكثيرة ، وكان يكفى لكلورندو أن يصفر لها فى خارج الكوخ حتى تثب من فراشها وتندفع معه .

وكانت تلك الأيام التى أمضيتها فى الكوخ القرمزى من أسوأ أيام حياتى ، بل لعلها كانت أسوأها جميعا .. الا اننى ، بعد شهر أخذت اطمئن نفسى قائلة : ان كلورندو شاب وسيم ، ولا بأس ان يكون زوجا لروزينا فى نهاية الأمر ! وأن على الانسان فى بعض الظروف أن يروض نفسه على قبول ما لم يكن يستطيع قبوله فى ظروف اخرى . وهكذا اخذت فكرة زواج روزينا من كلورندو تستبد بى وتعيد الآمال الى نفسى ، الى أن قلت لها ذات يوم بعد عودتها من رحلة معه :

ـ اننى ارجو أن ينتهى الأمر بينكما الى الزواج .
فقالت بكل هدوء وهى تخلع حذاءها :

ـ ولكن كلوروندو متزوج فعلا يا أماه .. ان له زوجة وطفلين في مدينة فروسينون .

وثارت دمائى الجبلية فى عروقى ، واذا أنا انقض على روزينا واهوى عليها ضربا وركلا كالمجنونة ، واصيح قائلة :

ـ أوتعترفين بهذا أيضا ؟. اننى سأقتلك .. ان موتك افضل من حياتك ..

ودافعت عن نفسها بقدر ما تستطيع .. حتى اذا انقطعت انفاسى وتراخت عضلاتى من فرط الاجهاد ، عدت الى فراشى ، لاهثة الانفاس . والقت هى بنفسها على الفراش ، واخفت وجهها فى الوسادة وظلت ساكنة لا أدرى هل تبكى أم تفكر فيما فعلت .

وجلست احملق فيها وأنا الهث وقد غمرنى يأس رهيب .. واخيرا قلت فى غضب :

ـ لسوف اتحدث مع هذا الوغد كلوروندو لأرى ماذا سيقول لى وهو يصاحب فتاة برغم انه زوج ووالد لطفلين ..

وعندئذ رفعت وجهها الخالى من الدموع ، وقالت بهدوء وعدم اهتمام :

ـ انك لن ترى كلوروندو بعد اليوم ، لأنه عاد نهائيا الى أسرته وفض الشركة مع اسرة كوتشينا .. لقد ودع كل منا الآخر هذه الليلة وذهب الى حال سبيله .

ولهثت انفاسى مرة أخرى .. ذلك انى لم اكن اتوقع أن تخبرنى بهذا كله بمثل هذا الهدوء وعدم الاهتمام ..

وقلت لها بالغضب الممزوج بالدهشة والعجب :

ـ اذن فقد كنت مجرد لعبة يلهو بها !..

– هذا هو الوضع الحقيقى .

فرفعت يدى .. وظننت هى أنى ساعود الى ضربها ، فجفلت ، وأحسست عندئذ بالرثاء لها ، والعطف عليها .. فقد كانت ابنتى على كل حال . وكنت ، كأية أم ، أكره أن تشعر ابنتى بالخوف منى ، لا بالحب لى .. ومن ثم قلت لها :

– لا تخافى .. اننى لن المسك .. ولكن قلبى ينزف دما وأنا أراك هكذا .

فصمتت وراحت تخلع بقية ملابسها .. وفجأة صحت قائلة :
– ومن ذا سيحملنا الى روما بعد أن ذهب كلورندو على هذا النحو ؟.

لقد تحررت روما أخيرا ودخلها الحلفاء .. ولسوف امضى بك اليها غدا ولو اضطررت الى الذهاب اليها سيرا على الأقدام .

فقالت بالهدوء نفسه :

– اننا لن نستطيع الرحيل الى روما الا بعد بضعة أيام . وعلى كل حال سوف يحملنا اليها أحد ابنى كوتشيتا .. لقد تم الاتفاق على هذا مع كلورندو بعد أن فضت الشركة وأخذ ابنا كوتشينا سيارة النقل ، وأصبحا يعملان لحسابهما الآن .

ولم تبهجنى هذه الأنباء . لأن ابنى كوتشينا كانا حتى هذه اللحظة بعيدين عن المنطقة لانشغالهما بأعمالهما فى السوق السوداء .. وكان كلورندو فى نظرى أخف وطأة منهما . ومن ثم لم ارحب كثيرا بفكرة العودة الى روما عن طريقهما .

* * *

وفى اليوم التالى أخبرتنى روزينا أن سيارة النقل قد عادت من فروزينون يقودها أحد ابنى كوتشينا ، المدعو روزاريو . أما الابن الآخر فقد ذهب الى نابولى . وكان روزاريو أبغض الاثنين الى نفسى وكان متوسط الطول ، متين الأسر ، قوى البنية ، وحشى

السمات ضيق الجبين ، قصير الأنف ، غليظ الشفتين ، بارزا الفكين ، واسوا من هذا كله انه لم يكن أمينا او ذكيا .

قال لروزينا ونحن على مائدة الطعام :

ـ ان كلورندو يرسل تحياته اليك ويقول انه سوف يزورك فى روما بعد عودتك اليها .

فردت عليه روزينا بحدة دون أن ترفع عينيها اليه :

ـ قل له اننى لن أرحب به ، ولا اريد ان أراه .

وادركت من لهجة روزينا انها كانت تحمل الحب لكلورندو . وقد ساءنى هذا . ساءنى أن تحب ابنتى شابا مستهترا مثله . وقبل أن اقول شيئا ، رد روزاريو عليها قائلا :

ـ لماذا ؟ هل أنت غاضبة عليه ؟ الا تزالين تحبينه ؟ .

وغلت الدماء فى عروقى وانا أرى روزاريو يتحدث الى ابنتى بهذه اللهجة الخالية من اى احترام .. وسمعت روزينا تقول له بحدة :

ـ لقد أساء كلورندو الى اساءة بالغة . انه لم يخبرنى قبل بموضوع زواجه ، وانما فاجأنى به أمس فقط حين قرر أن يعود الى زوجته .

ومرة اخرى نظرت الى روزينا وانا لا أكاد افهمها على الاطلاق . لقد كانت تتحدث عن هذا كله بلهجة حادة حقا .. ولكن فى سمت الانسان الذى لم يعد يهمه كثيرا ما حدث . وقال روزاريو وهو يرسل ضحكة قصيرة :

ـ ولماذا كان ينبغى ان يخبرك بهذه الحقيقة ؟ . ان مسالة زواجه منك لم تخطر بباله على الاطلاق .

وحنت روزينا رأسها ولم تقل شيئا ، واسرعت كوتشينا تقول :

ـ لقد تغير كل شىء مع الحرب كما تعلم جميعا . وقد أصبحت الصداقة التى لا بد أن تنتهى بالزواج من التقاليد القديمة البالية عند بعض الناس ..

فصحت قائلة وانا أشعر بقلبي ينزف دما !

ـ لا .. ان كل شيء لم يتغير بسبب الحرب ، وانما انتم وأمثالكم الذين ينتظرون الحروب لترتكبوا اعمالا ما كان في مقدوركم أن ترتكبوها في أيام السلام . ولكن هذا كله لن يدوم طويلا .. لسوف تعود الأحوال الى مجاريها الطبيعية ، وسوف تسود المبادىء والقيم المثالية مرة اخرى ، وسوف يسترد الشرفاء مكانتهم ، وعندئذ ستدفعون ، أنتم وامثالكم من المرتزقة والانتهازيين ـ الثمن غاليا .

وقال فنسنزيو ـ نصف الأبله ـ حين سمع ذلك ؟

ـ كلام جميل .. كلام جميل ..

وقالت كوتشينا وهي تهز كتفيها !

ـ لماذا تغضبين على هذا النحو ؟.

وضحك روزاريو عاليا وقال :

ـ انك ياسيزيرا امراة من عالم ماقبل الحرب . اما نحن جميعا ، وروزينا معنا ، فمن عالم مابعد الحرب . انظري الى الآن ، لقد كنت قبل الحرب متعطلا لا اكاد اجد قوت يومي . اما الآن ، فاني اربح في اليوم الواحد ما كان ابي يربحه قبل الحرب في عام كامل .. لقد تغير كل شيء مثلا ، وانتهت تلك الأيام الخوالي وما عليك الا أن تعتادي الحياة في العالم الجديد .

ثم نهض الشاب وفك حزامه وقال :

ـ انني سأقوم بعملية نقل بعض اللاجئين .. هل تحبين ان تأتي معي ياروزينا ؟.

واومأت روزينا براسها ، ونهضت عن المائدة وقد ارتسمت على وجهها تلك الأمارات المزعجة .. امارات الانسان الجائع الذي يرى من بعيد مائدة حافلة بأطايب الطعام . تلك الأمارات التي رايتها على وجهها حين ذهبت اول مرة مع كلورندو .

وجمعت نفسي وصحت قائلة :

ـ لا .. لا تتحركي .. لسوف تبقين هنا .

وخيم الصمت برهة ونظر روزاريو الى كأنما يريد أن يقول لى « عجبا » ماذا حدث ؟. هل انقلبت الدنيا رأسا على عقب ؟.

ثم نظر الى روزينا وقال بلهجة آمرة :

ــ هلم .. ليس لدى وقت أضيعه هنا .

وحاولت أن أمنع روزينا مرة أخرى من الذهاب معه ، الا انها قالت وهى تنصرف :

ــ سوف أراك قريبا يا أماه .

ثم اختفت معه فى غيابات بساتين البرتقال .

وعادت روزينا فى الليل ، وسمعتها وهى تأوى الى فراشها قبل أن استغرق فى النوم . وكنت قد أمضيت ساعات طويلة فى القلق والتفكير وكانت أفكارى تدور حول مصرع ميشيل الذى كان قديسا .. وحول مأساتنا .. وحول اسرة كوتشينا التى أصبحت تعيش كالديدان ــ على ما خلفته الحرب من مآس واهوال . وايقنت أن الحرب حرب كما اعتادت كوتشينا أن تقول .. وأن ضحاياها هم دائما أشجع الناس وأكثرهم حبا للتضحية والفداء ، واشدهم تمسكا بالمبادىء والقيم الأخلاقية .. اما اسوا الناس واخبثهم وأكثرهم استهتارا بكل المبادىء والقيم ، فهم الذين ينعمون بالحرب ، ويثرون ، وينتعشون تماما كالديدان التى تعيش على الرمم والجيفة .

وخامرنى شعور رهيب بالرغبة فى الموت .. فنهضت وبحثت عن حبل بعد أن اضأت السراج .. وعثرت على حبل كانت كوتشينا تستعمله لنشر الملابس المغسولة ، ومضيت الى ركن فى أقصى الغرفة ، بجوار النافذة الزجاجية ، وصعدت على مقعد لأربط الحبل فى حلقة بالسقف ، واعقد طرفه انشوطة تلتف حول عنقى وتزهق روحى ، وتخلصنى من الحياة ..

وبينما انا اهم بوضع الحبل فى عنقى ، رأيت الباب يفتح ، ويدخل ميشيل « ميشيل » بدمه ولحمه ، وبالمنظر الذى رأيته

عليه آخر مرة . وكان ينظر الى فى عتاب مرير ويحرك يديه كأنما يقول لى

ـ لا .. لا تفعلى هذا .. لا ينبغى أن تفعلى هذا .

ـ لماذا ؟.

ففتح فمه ليقول شيئا ، ولكننى لم افهم ، ولم أسمع .. وكان يتحدث وكأن بيننا لوح من الزجاج يمنع وصول الصوت الى أذنى ، اذ كنت أرى شفتيه تتحركان دون ان أسمع شيئا . ومن ثم صحت قائلة :

ـ أرجوك ان ترفع صوتك .. اننى لا اسمعك .

وعندئذ نهضت من نومى فى فزع وقد تصبب العرق على جسدى وقد أدركت ان الأمر كله لم يكن غير حلم مزعج .

وبقيت مسهدة فى فراشى أفكر فى هذا الحلم ، وفيما اراد ان يقوله لى ميشيل فى ساعة اليأس .. لا شك أنه أراد أن يقول لى : ان الحياة افضل من الموت .. وانه كان يحاول ان يشرح لى لماذا ينبغى ان يستمر الانسان على قيد الحياة طالما ان اجله لم يحن بعد ، لأن ما يحسبه اليوم شرا قد يتحول فى يوم آخر الى خير ..

واحسسنت أن هذا الحلم كان بمثابة الرؤيا التى جعلتنى افضل الحياة على الموت .. وان كنت لم أستطع أن افهم لماذا يفضل الانسان الحياة .. على الموت .

« الفصل الثانى عشر »

« بكاء .. وغناء »

واخيرا .. جاء اليوم العظيم الذى تقرر فيه بدء العودة الى روما . ولكن ما اشد اختلاف آمالى التى داعبتنى تسعة اشهر وانا قريبة من سانت ايفيميا عما أصبحت عليه الآن .. كانت فى

ذلك الحين آمالا كلها التفاؤل والاستبشار .. كنت أرجو أن أعود مع ابنتى سليمتين على الرغم من ما عانيناه من جوع وتشرد .. كنت أرجو أن أعود فى سيارة جيش الحلفاء ، مع عدد من هــؤلاء الجنود الامريكيين والايطاليين نغنى فى الطريق ونتبادل التهانى .. كنت أرجو أن أعود الى متجرى ومسكنى حيث أستأنف حياتى مع روزينا ، وحيث أراها قد تزوجت بشاب لطيف مهذب وحيث أعيش من اجلها ومن أجل أبنائها حتى يحين اجلى ، فأموت قريرة العين راضية النفس .

كانت هذه آمالى التى غمرتنى بظلالها الوردية وجعلتنى أغفل عن ان الحرب حرب كما اعتادت كوتشيتا أن تقول ، وان هذه الحرب مثل الحية التى يمكنها أن تنفث السم حتى وهى تحتضر .. وهكذا نفثت فينا سمها فى اللحظات الأخيرة من عمرها فأذهبت سعادتنا وقتلت ميشيل على أيدى الألمان ، وأرغمتنى على العودة الى روما فى سيارة نقل يقودها لص من لصوص الحرب يدعى روزاريو .

كان صباحا من ايام شهر يونيه ، وكان الجو قد بدأ حارا ، ولكن النسائم كانت رقيقة وكانت سيارة النقل واقفة امام الكوخ فى انتظار فراغنا من جمع حاجاتنا القليلة . واردت أن أنتهز هذه الفرصة لأحذر روزينا قبل العودة الى روما ، فقلت لها :

ــ أريد أن أعرف أين كنت معظم الوقت فى الليلة الماضية .

فقالت بهدوء واستياء :

ــ كنت مع روزاريو . وارجو أن تكفى عن سؤالى .

فقلت لها وانا اخفى فجيعتى :

ــ ولكن .. مع شاب مثل روازريو ؟ الا تعــــــرفين من هو روزاريو ؟ .

ــ لا داعى لأن تسألينى .

فأدركت انها تعانى لوثة أصابتها وانه لا جدوى من نصحها أو تحذيرها الا بعد أن تشفى من هذه اللوثة .

ولما خرجنا من الكوخ ، رأينا روزاريو وأمه كوتشينا جالسين يتناولان الفطور وما كادت كاتشينا ترانا حتى هتفت قائلة بطريقتها الحماسية :

ــ آه يا عزيزتى سيزيرا ــ انك عائدة الى روما اخيرا أيتها السعيدة المحظوظة نعم ما أسعدك . لسوف تتركيننا هنا ، نحن الفلاحين المساكين نستأنف حياتنا البائسة القاحلة المحرومة من كل شيء ، على حين ستعيشين فى روما حياة الناس المترفين هناك . ولكننى سعيدة من أجلك ومن أجل ابنتك ، لأنى أحبكما كأخت وابنة .

فقلت لها متهكمة :

ــ اننا حقا سعداء محظوظون لأننا تعرفنا بأناس امثالكم .

ولكنها لم تدرك تهكمى . أو لعلها تجاهلته ، وقالت :

ــ نعم .. نعم .. اننا اناس شرفاء مكافحون مبدؤنا فى الحياة أن نعيش وأن ندع غيرنا يعيش . ولقد رحبنا بكم هنا ، وقدمنا لكم أحسن ما لدينا من طعام ومأوى .. نعم .. ليس هناك عائلات كثيرة مثلنا .

وكدت اقول لها « نعم لحسن الحظ » ولكننى آثرت الصمت .

وبعد الطعام ، ودع بعضنا بعضا ، وابت كوتشينا الا ان تقبلنا وتعانقنا بحرارة ، ثم ركبنا السيارة بجانب روزاريو .. فكانت روزينا بجواره ، وانا بجوارها . وتحركت السيارة اخيرا فى الطريق الى روما .

وكان الجو صحوا ، والسماء مشرقة ترسل حرارتها قوية ، والطريق يمتد امامنا أبيض مغبرا .. وكنا ــ كلما ابطأت السيارة فى سيرها ــ نسمع شقشقة العصافير بين اغصان الشجر الذى يقوم على جانبى الطريق .

وكانت الدموع تطفر الى عينى كلما رأيت غبار الطريق الأبيض، والأشجار على جانبيه ، والطيور تتواثب على الأغصان ، وكانت تلك هي المناطق الريفية الحقيقية .. المناطق التى عشت فيها صباى، وقطعتها ذهابا وجيئة من روما الى بلدتى وبالعكس . وهأنذا أعود اليها بعد محنة تسعة أشهر خيل الى فيها انى غبت عن العالم فى جوف قبر ، ثم بعثت من جديد .

وتذكرت فجأة مأساتنا وشعرت عندئذ ان الشمس المحسنة تدفىء كل شيء حولى الا قلبى المفعم بالأحزان ، وان أغاريد الطيور التى طالما سعدت بها فى شبابى ، لم يعد لها ذلك الرنين العذب بعد ان فقدت الأمل فى كل شيء ، وأن الغبار الجاف الذى طالما انتشيت به فى أيام سعادتى ، أصبح الآن خانقا مثيرا للضيق . نعم . لقد خذلنى الريف ، وها هو ذا يعيدنى الى روما فى يأس وبلا اى أمل .. وأخذت الدموع تنحدر فى صمت على وجهى ، فأشحت به حتى لا ترانى روزينا ، ولكنها لمحتنى ، فقالت :

ـ لماذا تبكين يا أماه .

وكان صوتها رقيقا حانيا حالما جعل الأمل يراودنى فى ان معجزة من السماء قد تحدث وتعيدنا الى ما كنا عليه .. ونظرت اليها لأرد عليها وقلت :

ـ اننى أبكى من فرط الألم .. هذا هو سبب بكائى .

وانطلقت السيارة على طريق فيا آبيا المرصوف بين صفين من الأشجار الضخمة مما جعلنا كأننا ننطلق فى نفق أخضر طويل تنفذ من سقفه أشعة الشمس هنا أو هناك . وسرعان ما وصلنا الى تيراسينا حيث كانت مهجورة أيضا بعد ان مرت بها جيوش الحلفاء وأعادت اليها الحياة يومين أو ثلاثة ، ثم خلفها كما كانت أو أسوأ مما كانت . لأن الأهالى ، قبل وصول الحلفاء ، كانوا يعيشون على الآمال الكبار فيما سيقدمه الحلفاء اليهم ، اما بعد ذلك ، فقد ضاعت هذه الآمال ، ولم يبق لديهم شيء يعيشون عليه .

ورأيت في النهاية أن أشغل روزينا بالغناء ، وكانت ذات صوت جميل رنان .. وكثيرا ما كانت تغني لنفسها وكأنها عصفور سعيد بالحياة .. ومن ثم طلبت منها أن تغني .. فقالت :

ـ أية أغنية تريدين يا أماه ..

فذكرت عفوا ، أغنية كانت شائعة قبل الحرب ، وكانت روزينا تجيد غناءها ولا تمل من ترديدها .. وسرعان ما راحت روزينا تغني ، ولكنني فجعت ، لأني تبينت التغيير الهائل الذي طرأ على صوتها فجعله متحشرجا ، متقطعا ، وكأن غناءها أقرب شيء الى البكاء .

وأدركت هي هذه الحقيقة ، فتوقفت وقالت في خجل :

ـ لقد فقدت جمال صوتي يا أماه .. ولم أعد أحسن الغناء .

وتمنيت أن أقول لها « لقد فقدت جمال صوتك ، لأنك فقدت صوابك » .

ولكن روزاريو قطع على تفكيري بقوله :

ـ سوف أغني أنا ..

وراح يرفع عقيرته منحنيا بصوت مزعج ، أو هكذا خيل الي .

ومررنا بعد تيراسينا ببلدة يسترنا ، وكانت أيضا خرابا يبابا .. ولم تلبث الشمس أن غابت وراء كتل من السحاب الزاحف من ناحية البحر ، ومن ثم خيم على الجو ظلال من الكآبة والانقباض كأنها نابعة من أعماق قلبي . وازداد احساسي بالوحشة برغم أن هدير محرك السيارة لم يتوقف لحظة واحدة وبينما أنا جالسة ساكنة أنظر الى أشجار الفلين الضخمة وهي تمرق بجانبها ، اذا بنا جميعا نرى على مسافة يسيرة عمود « تلغراف » يعترض الطريق فأوقف روزاريو السيارة بسرعة جعلتني أوشك أن أصطدم بالزجاج الأمامي . وتنبهت روزينا التي كانت قد نعست ، وقالت :

ـ ماذا حدث ؟.

وفى تلك اللحظة برز ثلاثة رجال من وراء الشجر ، ووقفوا أمام السيارة ، وكانوا فى اسمال بالية ، وعلى وجوههم سمات الشر والتحفز . ورأيت روزاريو يخرج من جيبه بسرعة كيس نقود ملىء ويضعه فى درج السيارة الأمامى ، ثم يقفز ويتقدم نحو الرجال الثلاثة بشجاعة لم يسعنى الا ان أعجب بها . وحدث كل شىء بسرعة خاطفة لقد رأيت من وراء الزجاج ، احد الرجال الثلاثة يتحدث الى روزاريو ، وهذا يرد عليه ، ثم اذا بالرجل يخرج مسدسه ويطلقه على روزاريو الذى استدار وسار مترنحا نحو السيارة ، ثم انكفأ على وجهه جثة هامدة ..

وفى تلك اللحظة سمعنا هدير سيارة مقبلة بسرعة بالغة ، وسرعان ما انفلت قطاع الطريق الثلاثة هاربين . وتوقفت السيارة بجوارنا . وكانت سيارة عسكرية عليها جنديان من جيش الحلفاء. وهبط أحد الجنديين ونظر الى جثة روزاريو ثم قال لصاحبه بلغة ايطالية :

ـ لا شأن لنا بهذا .. هلم نمض ..

وبعد ان ازاح عمود « التلغراف » من الطريق ، مر بالسيارة بجوار الجثة دون ان يحفل بصيحات استغاثتنا .

وتذكرت كيس النقود الذى اخفاه روزاريو فى درج السيارة ، فاسرعت وأخذته واخفيته فى صدرى . وفى تلك اللحظة سمعت صرير موقف سيارة أخرى بجانبنا ، وكانت سيارة نقل كبيرة يقودها ايطالى هذه المرة .

ونظر السائق الى الجثة ، ثم الينا ، وأدرك كل شىء . وبدا على وجهه امارات الرجل الخائف الذى لابد أن يقوم بواجب كان يتمنى لو انه أعفى منه ، ثم قال .

ـ اسرعا وحركا هذه الجثة بعيدا عن الطريق حتى أستطيع المرور دون أن أدوسها ..

وأسرعت مع روزينا وأمسكت بذراعى روزاريو الميت ، وأمسكت روزينا بقدميه ، وكان ثقيلا جدا ، وزحزحناه الى حافـة المصرف الممتد بحذاء الطريق . وكنا نقوم بهذا وقد خلت نفوسنا من اية مشاعر الا الرغبة فى الهرب من هذا الموقف .

وكان السائق يحثنا قائلا :

ـ ارجوكما الاسراع .. أسرعا بربكما .. أسرعا ..

وعدنا الى سيارته ، وركبنا معه ، واندفع هو فى الطريق الى روما .. ونحن معه .

وبينما نحن نقترب من المدينة ، وبعد أن لاحت من بعيد قبة كتدرائية القديس بطرس ، اذا بروزينا تندفع فى غناء وترديد تلك الأغنية الحبيبة لديها وكان صوتها صافيا جميـلا رنانا مفعمـا بالحرارة والحيوية .

واحسست بالآمال تنتعش فى نفسى.اذ ادركت ان هذهالقدرة على الغناء معناها أن روزينا قد استردت طبيعتها الأولى .. انها قد شفيت فجأة من اللوثة التى اصابتها بعد مأساتنا .. ولعلموت روزاريو رمز الشر على هذا النحو ، كان الصدمة التى أعادتاليها صوابها ...

ومع انتعاش الآمال ، قررت أن أعيد مال روزاريو الى امه فى اقرب فرصة وحسبى أنى خرجت بابنتى من محنة الحرب كمـا يخرج الانسان من عالم كله الظلمات الى النور .. والى الأمل ..

« تمت »

روايات عالمية

العدد القادم

الشارع الخلفي

للكاتبة الأمريكية

فاني هيرست

ترجمة

فوزي شاهين


الدار القومية للطباعة والنشر

الثقافة والإرشاد القومي

الدار القومية للطباعة والنشر









تعمل على تحقيق الثورة الثقافية التي نادى بها الرئيس جمال عبد الناصر























مكتبات الدار

نيويورك لندن
الجزائر بيروت
طرابلس بغداد
الخرطوم الإسكندرية
القاهرة

